هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي

بقلم

حفيدته "عابدة المؤيد العظم"

الفهرس

8- تقدير النِّعم والمحافظة عليها

9- في عالم الكتب
وفي رحاب المعرفة

بين يدي هذا الكتاب

عرف الناس جدي، علي الطنطاوي، من قديم. فكان -كما عرفوه- عالماً فقيهاً أديباً كاتباً خطيباً متحدثاً داعياً إلى الحق قوياً فيه جريئاً على مخالفيه. وكان -بذلك- علماً من أعلام الأمة في هذا العصر وواحداً من رجالاتها الكبار.

أما أنا فعرفته من أكثر من ثلاثين سنة لمّا وعيت وأدركت، فكان لي الجد العطوف والمربّي العاقل والموّجه المبدع. ورأيت كيف كان يتعامل مع بناته الكبار ومعنا -نحن أحفاده وحفيداته- الصغار، فوجدته متميزاً في توجيهه متفّرداً في أسلوب تربيته، ووجدت من الأثر الطيب لهذا التوجيه والنتائج العظيمة لهذه التربية ما زادني قناعة ويقيناً بأن هذه التجربة حريّة أن لا تبقى حبيسة معرفة بعض الناس بل أن تُنشَر فيطلع عليها سائر الناس؛ فتكون لهم عوناً في تنشئة أبنائهم وتلاميذهم، ويستفيدون منها منهجاً صالحاً في التربية هم أكثر ما يكونون له حاجة، ويدعون لجدي بالمثوبة والأجر في الآخرة، وهو أحوج ما يكون إلى هذا الدعاء.

الفصول اللاحقة في هذا الكتاب نُشِرت على حلقات في مجلة "المجتمع" الكويتية بعنوان: "لمسات في التربية من جدي الشيخ علي

الطنطاوي" على مدى عام وبعض العام ابتداءً من صفر 1417 ما عدا الحلقة الأولى التي نُشرت في مجلة "النور" الكويتية في ربيع الآخر 1417، وقد أحببت أن أنشرها في كتاب واحد يضمها جميعاً فيحفظها من شاء ويطلع عليها من شاء في أي وقت يشاء، وإني على يقين أن أحداً لن يقرأها فيخرج منها بغير فائدة إن شاء الله. فلعلي أكون شريكة في الثواب بعملي هذا لأن للدالّ على الخير مثل أجر فاعله، لا ينقص ذلك من أجر فاعله شيئاً.

عابدة المؤيد العظم

جدة - 1998

تقديم

أنشأت مرةً فصلاً جعلت العنوان في أوله: "ما لا يعرفه الناس عن علي الطنطاوي" جمعت فيه مما يتعلق بجدّي أشياء لو اطلع عليها الناس لعجبوا؛ لإنها ستتكشّف لهم عنه -حينئذٍ- صورةٌ ما ألفوها، وسيعلمون أنه لا يختلف عن سائر الناس بقوة فكره وحسن منطقه وغزارة علمه وجمال أسلوبه وحلاوة حديثه فحسب، بل هو -بعد- مختلف متفرّد في شؤونه جميعاً: مأكله ومشربه، ومجلسه ومنامه، وتنقله واستقراره، وزيارته للناس واستقباله لهم، بل وفي سائر أمور حياته.

وليس يتسع المقام لسرد تفصيل ذلك كله، وإنما أكتفي بأن أسوق وصفاً لبعض عاداته في القراءة والكتابة: فهو يفتح ويتصفّح كل كتاب تصل إليه يده، فإن أعجبه أتمّ قراءته وإن لم يعجبه تركه إلى سواه. والقراءة أكثر عمل يصرف فيه وقته، فربما قرأ في اليوم الواحد ثماني ساعات أو تسعاً أو أكثر من ذلك، ويقرأ في كل موضوع، من الأدب إلى الفقه إلى التراجم والتاريخ والطب والعلوم العامة وسواها، ويقرأ من الجرائد اليومية سبعاً تصله إلى البيت كل يوم فلا يغيب عنه شيء مما

يُنقل من أخبار الدنيا. وهو -في القراءة- سريع غاية السرعة، حتى ليحيط بمحتوى الورقة في لمحة ويدرك الموضوع من نظرة.

* * *

أما الكتابة فله معها شأن عجيب. فهو يكتب الفكرة أو المسألة -إذا خطرت بباله- على أي شيء يصلح أن يُكتَب عليه، فإن لم يجد ورقة بيضاء كتب على ظرف مستعمل أو على قفا غطاء علبة كرتونية أو على طرف فاتورة هاتف. وهو يكتب -إذا كان مستعجلاً- بخط عجيب لا يقرؤه سواه، بل ربما عاد ليقرأ ما كتب فلا يستطيع فكّ رموز الخط الذي كتب به ويستعين بمن يجد أمامه من الناس وكلهم يعجز عن القراءة! وأكثر ما يقع منه ذلك حين يكتب ليلاً. وقد أمضى سنين طوالاً يضع إلى جنبه -حين ينام- مصباحاً كهربائياً، فإذا انتبه من نومه على فكرة أو أرق فخطرت في باله خاطرة أضاء المصباح فكتبها على عجل وعاد إلى النوم، وقد يكتبها في العتمة حتى لا يفارقه النوم، فإذا استيقظ من نومه في الصباح فقد ينجح في قراءة ما كتب وقد يفشل في ذلك. أما إذا قصد الكتابة بالخط الجميل فإنه يرتقي إلى مستوى الخطاطين الكبار، فقد تعلم الخط مذ كان صغيراً فبرع فيه وصار يتقن التخطيط بالنسخ والفارسي والديواني وسواها، ولكن الثُّلث هو خطه المفضل وأكثر ما يتقنه من الخطوط. وهو لا يكتب إلا مستنداً إلى جسم صلب، ولما كان لا يكتب جالساً إلى طاولة أو مكتب أبداً ولا يكتب إلا قاعداً فقد اتخذ لنفسه لوح كتابة صغيراً مما تُعلّق عليه الأوراق فلا يكتب إلا مستنداً عليه. أما كتابته على الورق

فله فيها طريقة خاصة، فهو يبدأ بالكتابة من الزاوية الشمالية الشرقية من الورقة وينتهي في زاويتها الجنوبية الغربية، غير تارك فيها أي بقعة من الفراغ. ويكتب بالحبر أو الرصاص أو أي قلم يكون قريباً منه.

* * *

إن من أقدم ما أذكره ومن آخر ما بقي في مخيلتي من صورٍ من أيام طفولتي المبكرة صورة جدي جالساً في مجلسه المعتاد الذي لا يتبدل ولا يتغير في زاوية من زوايا غرفة المعيشة الكبيرة في بيته بالشام. كان ذلك مكانه الذي لا يجلس فيه سواه، فإذا غاب عن البيت بقي شاغراً فلا يقربه أحد. ثم انتقل جدي من الشام إلى مكة فنقل معه مجلسه ذاك، فكأني الآن أراه في بيته بقاسيون بالشام ثم في أجياد بمكة من خمس وثلاثين سنة إلى عهد قريب ما بدّل جلسته ولا غيّر مجلسه، يقعد طاوياً تحته رجلاً وناصباً ركبة الأخرى، ممسكاً بيده شيئاً يقرؤه وقد وضع نظارته على مقدم أنفه، أو جالساً يحدث أهل بيته الذين حفّوا به وملؤوا غرفته. وهو لا يجلس إلاّ وحوله الوسائد من كل حجم وكل قياس: من الصغيرة إلى الوسطى إلى الكبيرة، وبينها أحجام وأحجام. فلا يزال يسحب من خلف ظهره واحدة ويحشو أصغر منها ثم ينزع واحدة ويضع أكبر منها حتى يستقيم له الحال ويحس بالراحة إذ قد سدّ خلف ظهره كل ثغرة وملأ كل فراغ.

* * *

أما سيرته في طعامه فليست أقل غرابة من أيٍ من عاداته الأخرى. فالناس قد تواضعوا في كل بقاع الأرض أن طعام المرء في اليوم ثلاث وجبات، ووضعوا لكل واحدة منها اسماً يُشار إليها به ويُستدل عليها منه. أما جدي فلا يعرف هذا النظام، بل هو إذا قام من النوم أكل شيئاً، ثم هو يأكل كل أربع ساعات وجبة. ولا يلزم أن تكون الوجبة على مائدة حافلة منوعة، بل شيئاً محدوداً من الطعام قد لا يزيد عن كوب من الحليب وقطعة من الخبز ليس معها شيء. وإذا مضت أربع ساعات على الوجبة السابقة وحان موعد الوجبة اللاحقة فإنها لا تتأخر دقيقة كما لم تتقدم دقيقة، فما وجد من الطعام القابل للأكل – عند ذلك– أكله، ولو أن أطيب الطعام وأحبه إليه كان على النار يُطبخ فإنه لا ينتظره ولو بقي لنضجه خمس دقائق، ويأكل الطعام الحاضر ولو كان بارداً ولا ينتظره حتى يسخن. وهو لا يمكن أن يقدم الوجبة عن موعدها. ولو أحسّ بالجوع أو جيء بالطعام الشهي ساخناً ولمّا تنقضِ الساعات الأربع الفاصلة بين الوجبتين لم يمدَّ إليه يداً ولم يأكل منه شيئاً. وإذا جلس إلى مائدة فيها أنواع كثيرة من الطعام – وقلّ أن يحصل ذلك– أو دُعي إلى وليمة فيها أصناف من الأكل الكثير – وإجابته دعوةً لوليمة من هذا النوع ضرب من المستحيل– فإنه لا ينّوع الطعام؛ فإذا بدأ بنوعٍ أتمّ أكله منه ولم ينتقل منه إلى سواه. وليس ثمة صفة لازمة للأكل، بل ربما أكل جالساً إلى الطاولة وربما أكل قاعداً على الأرض، غير أنه يغلب أن يأكل وحده، فلا يحب أن يأكل أمام الآخرين ولا يحب أن يأكل الآخرون أمامه.

وله في الأكل قواعد وضوابط علمها لبناته وعلمها هؤلاء –من بعد– لأولادهن؛ فلكل واحد طبقه الخاص به، وللأطباق الرئيسية ملاعق كبيرة يُغَرف الطعام بها فلا يُدخل أحدٌ ملعقته في غير صحنه، ويغلق الآكل فمه فلا يعرض ما فيه على الناس كما يفعل كثير من الآكلين، ولا يُصدر عند الأكل أحدٌ صوتَ المضغ والعلك كصوت مطحنة البن أو خلاط الفاكهة، ويقدّر كلٌّ من الآكلين كمية الطعام من كل نوع وعدد الحاضرين فلا يأكل أحدٌ غير نصيبه ولا يعدو على حق الآخرين، وإذا حضر الصغار والكبار وضاقت الأماكن تأخر الصغار (ولكن لا يُنَسون فيعدو الكبار على أنصبتهم) والأفضل أن تكون للكبار مائدة وللصغار مائدة، ولا يلحس الآكل أصابعه بعد كل لقمة إذا كان الأكل غمساً بالخبز، ولا يمسح يده في ثوبه أو وجهه، ولا يعطس على الطعام ولا يذكر عليه قبيحاً، ولا يخلل أسنانه أو يتسوك مخرجاً من فمه قبائح على ملأ من الناس، ولا يترك أحدٌ في صحنه شيئاً إلا أكله (ولو كان بقية من مرق) لأن الطعام نعمة من الله ومن استهتر بنعم الله واستهان بها استحق أن يحرمه الله منها.

هذا كله إلى جانب كل مأثور مسنون من أدب الطعام، وأول ذلك التسمية، والأكل باليمين، وأكل الآكل مما يليه.

ولا يتم الأكل بدون الشاي، وللشاي عنده –أيضاً– ضوابط وقواعد وأصول وأحكام يطول شرحها.

* * *

غير أن ذلك كله من خاصة شأنه مما لا يضر ولا ينفع سواه، أما الذي قد نفع به غيره فكثير، يعرف منه الناس جهوده العامة في الإصلاح: من خطب وكتب، وندوات ومحاضرات، ورحلات ومؤتمرات، ولكنهم لا يكادون يعرفون شيئاً عن الذي نفع به القريبين منه والمحيطين به من أهل بيته، وهو شيء جليل عظيم.

فكثير من العلماء يُحسِن أن يكون واعظاً بليغاً ومحدّثاً قديراً يصلح الناس ويترك فيهم أحسنَ الأثر، وكثير من المربّين يفلح في تكوين أسرة صالحة وينجح في تنشئة ذرية طيبة؛ ولكن الذي يجمع بين كلا الأمرين قليل، وجدّي من هؤلاء القليل. ذلك أن بناته وأبناءهن وبناتهن وأبناء وبنات الأبناء والبنات يبلغون الآن نحواً من ستّين، وما في هؤلاء جميعاً -بحمد الله- أحدٌ يُنتقَد في دينه أو خلقه، بل هم في التدين وحسن الالتزام بالإسلام سابقون متميزون. فقد كانت له في تربية بناته طريقة فريدة لم يُسبَق إليها وأسلوب عجيب لم يؤثر عن سواه، فنشأن بنات صالحات ديّنات صيّنات، ثم صرنَ أمهات فنقلن ذلك (أو أكثره) إلى أبنائهن وبناتهن، وفعل أولئك مع أولادهم مثل ذلك.

ويتصل بهذا أمْر أغرب منه؛ فالشيخ الآن قد جاوز التسعين، وأهل بيته -كما ذكرت- نحو من ستّين، ولكنه يتابع حال كل واحد منهم ويهتم بشؤونهم كأنما هو في الثلاثين أو كأن أهل بيته أربعةَ أشخاص أو خمسة لا غير. فهو يسأل عن المريض حتى يبرأ وعن الطالب حتى ينجح، وإذا أحسّ بضيق لدى أي فردٍ أمدّه بالمال، أو شكت إليه أمٌّ من أحد أولادها أسعفها بالنصيحة. فهو يسع -

بذلك- الجميع بقلبه وماله ووقته واهتمامه، بل هو يفعل ذلك مع أزواج البنات وأزواج بناتهن وزوجات أبنائهن، كما يفعله مع إخوته وأخواته وأبنائهم وبناتهم. وما أدري كيف يستطيع أن يصنع هذا كله مع هؤلاء جميعاً، ولكنهم صاروا -لأجل ذلك- يحبونه كلهم غاية الحب ويتعلقون به أقصى التعلق، حتى الصغار الذين لما يجاوزوا الثلاث أو الأربع السنين.

* * *

ولئن كان التدين أعظم أثر تركه الشيخ في أهل بيته، فإنه قد أورثهم فضائل ومآثر أخرى كثيرة لست الآن بسبيل إحصائها أو حصرها، وإنما أسوق لها مثالين اثنين، أولهما: اعتزازه بالله وجرأته في الحق، وهي جرأة يعرفها فيه الأعداء والأصدقاء، القريب منهم والبعيد. وقد سَرت هذه الروح منه إلى بناته ثم إلى أسباطه، فأوجدت عندهم اعتزازاً بالله وعزة في النفس تأبى الهوان وترفض العدوان، كما أنها قد أمدتهم بجرأة في الحق لا يخشون معها قوياً ولا يهابون ذا سلطان. وهذه هي عزة المؤمن التي يريدها ويحبها الله ورسوله، وهي التي استبدل بها كثير من المسلمين ذلّةً مكّنت لعدوهم منهم وضيعت عليهم الحقوق والديار والأوطان.

أما المثال الثاني فهو تنمية الملكة العلمية والتشجيع على القراءة والمطالعة والمراجعة لدى الجميع حتى الصغار من الأولاد والبنات (وهو ما ستجدون عليه البرهان في هذا الكتاب). أذكر أنه كان يدفعني إلى القراءة في أمّات الكتب وأنا ابن عشر سنين، وقد أهداني -وأخي

مؤمناً-كتاب الأعلام للزركلي في اثني عشر مجلداً (في طبعته الثالثة) وأنا في الثالثة عشرة، وفي نفس السنة حملني على شراء وقراءة فجر الإسلام وضحى الإسلام لأحمد أمين فقرأتهما كليهما ولما أتمّ الرابعة عشرة وأفدت منهما علماً لم أنَس كثيراً منه من بعد. وخير ما نفعني به -في هذا الباب- التدريب على المراجعة في كتب العلم، فقلّ أن سألته عن مسألة وأجابني عنها إلا أن يقول لي: "راجعها". فإذا عجزت عن العثور على المرجع المناسب أرشدني إليه، ثم إذا فشلت في الوصول إلى الموضع المطلوب في الكتاب أعثرني عليه، فأورثني ذلك حباً لكتب العلم ومقدرة على المراجعة فيها بغير عناء، سواء في ذلك كتب اللغة والفقه والحديث والأعلام والتاريخ وغيرها، وكذلك فعل مع عامة أهل بيته. ولو أنه أجاب كل سائل عن مسألته لكان كمن يقدم لطالب السقاء كوباً من لبن، وهو بنهجه هذا كأنه قد أمدّه بشاة أو بقرة تدّر عليه اللبن في كل آن.

* * *

وبعد، فإني قد جئت أقدم لهذا الكتاب بكلمات معدودات فانشغلت عنها بالذكريات، ونسيت المقدمة التي من أجلها بدأت الكتابة. فليعذرني القارئ عن هذا التقصير، وليُجْز هذه الكلمات إلى الصفحات اللاحقات، فإن في هذا الكتاب -من الفوائد والفرائد والعبر والخلاصات- ما يغنيه عن التعريف والمقدمات.

* * *

والتفاصيل في كتاب الذي صدر 2013:

"**جدي علي الطنطاوي كما عرفته**" دار ابن حزم

تجربة تربويّة فريدة

هذا حديث عن جدي -الشيخ علي الطنطاوي- الذي عرفه الناس قبل أن أعرفه، واستفادوا من علمه الواسع في محافل العلم ومواطن الخطابة وعبر الإذاعة والرائي قبل أن أوجد في هذه الدنيا، ونُشرت مقالاته وطُبعت كتبه قبل أن أتعلم القراءة والكتابة.ثم جاء يومٌ شعرت فيه بالحاجة إلى أن أحدّث عنه الناس، لا كما عرفوه هم، ولكن كما عرفته أنا: جداً لحفيدة عاشت في داره، وكبرت تحت إشرافه؛ ومربياً لأهل بيته؛ وموجهاً لمن حوله.

لقد اهتم جدي بموضوع **التربية** وركز عليه، ونبّه الناس إليه في خطبه وكتبه وأحاديثه، وكان أكثر ما دعا إليه وحثّ عليه ورغّب فيه: العناية بتربية الأبناء تربية إسلامية صحيحة وذلك بإنشاء دعامتين عظيمتين أساسيتين:

بناء الإيمان العميق، وزرع الإحساس الدائم بمراقبة الله.

ضرب جدي مثلاً لذلك فقال: عملية التربية تشبه عملية البناء، والبناء -مهما كان نوعه- لا يقوم إلا بأساس، فمن أراد أن يبني بناء بطابقين حفر الأرض ووضع أساساً من الحديد و الإسمنت يكفي

لطابقين،ومن أراد بناء عمارة من عشرة طوابق، وضع حديداً وإسمنتاً يتحمل عشرة طوابق، بينما لو أردنا بناء ناطحة سحاب لاحتجنا إلى أساس أقوى وأمتن. وهذا هو الأصل في الدين، وهو ما نريده اليوم للنجاح في الدنيا والنجاة والفوز في الآخرة؛ نريد جيلاً عميق الإيمان، قوي البنيان،يفهم الإسلام فهماً صحيحاً مستقيماً لا لبس فيه ولا اعوجاج.

لذلك علينا –مربين– غرس الإيمان عميقاً في النفوس، وزرع التقوى وخوف الله في القلوب، والتأكيد على الاستقامة ومراقبة الله في السر والعلن. وهذه المرحلة تبدأ منذ الطفولة الأولى، ويتوجب فيها على المربي أن يستغل كل موقف وكل حدث لغرس هذه المبادئ، وتحتاج إلى تركيز وتأكيد دائمين؛ حتى ينجح المربي في بناء الأساس القوي المتمثل في: الإيمان الكامل الصحيح (كما هو مفصل في أركان الإيمان)، والقيام بأعمال الدين الأساسية، من صلاة وصيام وزكاة وتحليل للحلال وتحريم للحرام. ولا ينجح المربي في ذلك إلا أن يكون –هو نفسه– على بينة وفهم صحيح مستقيم للدين بحلاله وحرامه.

ثم أَتَمّ جدي مثاله فقال: تأتي بعد ذلك أعمال مهمة مكملة، لكنها ليست من الأساسيات، مثل بناء الحوائط، ووضع الشبابيك، والتركيبات الداخلية. وهي –في التربية– تشمل السنن المؤكدة (التي ينبغي أن نشجع أبناءنا عليها، ونحثهم على القيام بها، بتعريفهم فضلها، وعظم ثوابها، لكن لا نجبرهم عليها). وأخيراً تأتي التشطيبات النهائيةبحيث يُتِمّ كل فرد بناء بيته حسب ذوقه. فمن الناس من

يكسوه بالرخام، ومنهم من يطليه بالدهان، ومنهم من يلصق ورق الجدران، فذلك عائد لذوق صاحب البناء ولمقدرته المادية وللهدف الذي من أجله أُقيم البناء.

وبهذا المثال الواضح أشار جدي إلى أمرين، أولهما: اختلاف الناس، فمنهم من يريد دخول الجنة فقط، ومنهم من يريد الدرجات العالية. وثانيهما: أن الناس يتفاوتون في القدرات والطاقات، والميول والأهواء، فلا يمكن أن يميلوا كلهم إلى العبادات كالإكثار من التنفل في الصلاة والصيام، ولا يمكن أن يكونوا كلهم أغنياء كرماء يتصدقون بالليل والنهار... لذلك كانت الجنة بعدّة أبواب؛ ليدخل كل مسلم من الباب الذي يناسبه بالعمل الذي يقدر عليه.

* * *

فيا أيها المربون: لا تجبروا أبناءكم على شيء من النوافل؛ فيصبح العمل إرضاءً لكم وخوفاً منكم لا خالصاً لله. ولا تهتموا بالمظاهر والظواهر، بل اعملوا فقط على تقوية الإيمان، وذلك بربط حوادث الحياة اليومية بمراقبة الله والخوف منه. قاوموا الغش والكذب والخيانة، وقوّموا المفاهيم الخاطئة: فلا توجد -مثلاً- كذبة بيضاء، ولا تجوز الخيانة والغش حتى للكافر... ثم اتركوا كل مسلم يقدم بعد ذلك ما يستطيع من الأعمال الصالحة. وستكون المفاجأة أن ذلك المسلم سيسعى بنفسه إلى الكمال، وسيحاول القيام بكل عمل يقربه إلى الله.

لا تعجبوا من هذا الكلام ولا تظنوه مستحيلاً أو صعب التنفيذ؛ فالذي يقرأ في كتب الحديث يرى -جلياً- كيف سعى النبي e إلى غرس الإيمان في نفوس أصحابه فولّد ذلك لديهم الرغبة في الكمال، واندفعوا يسألون عن الحلال والحرام، وعن الخير والشر، وأي الأعمال أفضل. حتى أنهم نُهوا عن ذلك (كما ورد في الحديث الذي رواه الإمام مسلم) : "إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحّرم على المسلمين فُحِّرم عليهم من أجل مسألته".

وأكثر ما يعجبني في جدي أنه كان قدوة في ذلك، فكان أولَ من طبق ما يدعو إليه -رغم وفرة مشاغله وكثرة تغيبه عن المنزل- فهو لم يهمل بيته ولم يترك بناته، بل عمل على توجيههن، وأحسن تربيتهن، ونمّى عندهن مراقبة الله الدائمة، وخوّفهّن من عقابه، ورغّبهّن في ثوابه، فصرن يتسابقن لما يرضي الله، ويسألنه هن عن الأعمال التي تقربهن من الله بدل أن يدفعهن هو إليها. **وبذلك أثبت جدي أن عمل الدعاة في توجيه عامة المسلمين وتوعيتهم لايتناقض أبداً مع تربية الأبناء،** بل إن واجب الداعية الأصلي هو تربية أبنائه قبل تربية أبناء المسلمين.

فكيف استطاع جدي ذلك ؟ وماهي الطريقة التي اتبعها لغرس الإيمان في نفوس بناته؟

* * *

بدأ -منذ أيام طفولتهن الأولى- بتنبيههن إلى وجود الله وقدرته العظيمة، مراعياً إدراك البنت وقدرتها على الفهم في كل مرحلة،

مستغلاً المواقف المناسبة؛ فإذا طلبت إحدى بناته منه شيئاً قال لها: اطلبيه من الله. فتسأل: كيف أطلب ذلك الشيء من الله؟ فيقول لها: قولي: "يارب، أريد كذا"، وهو سوف يسمعك وسيعطيك، لأنه معك أينما كنت. وبعد أيام يأتي جدي وفي يده ما طلبته ابنته قائلا: انظري، لأنك قلت "يا رب"، رزقني الله مالاً وقدّرني على شراء ما تريدين. وكان –بين الحين والآخر– يشتري لبناته شيئاً لطيفاً مفرحاً: لعبة، أوحلوى، أو ملابس جديدة، ثم ينتظر حتى تغفو البنت فيضع ما أحضره إلى جانبها على طرف السرير. فإذا سألت في الصباح: من أحضر هذا؟ فإنه يقول لها: أحضره لك الله، فاحمديه واشكريه يعطِك المزيد.

وكان –إذا أقدمت البنت على ذنب صغير– يبين لها أنه عمل سيء ما كان ينبغي أن تعمله لأن الله حرمه ورسوله نهى عنه، ثم يطلب منها أن تتوب وتستغفر وأن لا تعود إلى هذا العمل أبداً حتى لا يغضب الله منها و يحرمها من ثوابه ومن إجابة دعائها، أو يتسبب غضبه عليها في عقابٍ يصيبها.

هكذا كان يفعل دائماً، ودون كلل أو ملل، حتى اعتادت بناته ذلك، وصارت إحداهن تدعو أحياناً بالمستحيل لشدة ثقتها بقدرة الله وقربه منها.

* * *

هذا بعض ما حدثتني به والدتي وخالاتي، أما الذي رأيته ولمسته بنفسي فكثير. فمن ذلك:

اهتمام جدي الشديد بالحلال والحرام؛ فقد كان يراقبنا ونحن نتوضأ، فينبهنا إلى وجوب غسل العقب غسلاً جيداً امتثالاً لتحذير النبي e: ويل للأعقاب من النار.

وعندما بدأت أصلي وأنا صغيرة (ولما تُفرض عليّ الصلاة) كان يراني أصلي صلاة سريعة دون اطمئنان فيأخذني إلى غرفته ثم ينصحني قائلاً: "يا ابنتي، أنت توضأت وسترت عورتك ووقفت بين يدي الله إرضاء له، فلماذا لا تصلّين كما أُمرت؟ إن النبي e نهى عن نقر الديكة، فصلي باطمئنان ولا تضيعي تعبك وتركك اللعب هدراً، بل تقربي إلى الله بصلاة خاشعة يوفقك في كل عمل تقومين به بعد ذلك. كما أن الصلاة -مهما طالت- لا تأخذ من وقتك أكثر من خمس دقائق، فما هو العمل الثمين الذي تهملين الصلاة من أجله؟ وما هو الشيء الأهم من رضى الله؟". فكان هذا التذكير الرفيق يدفعني إلى تجويد صلاتي والتمهل بها والخشوع فيها من بعد.

وكان يمنعنا منعاً عنيفاً من نتف الحواجب أو الأخذ منها ويصور ذلك العمل من الذنوب العظام. وكان ينهانا أشد النهي عن لبس ما يصف أو يشفّ، ولنا بعد ذلك أن نلبس ما نشاء.

أما السنن والنوافل فكان يحثنا عليها دائماً، ويبين لنا فضلها وعظم ثوابها. بل إنه كان يتفنن في ترغيبنا بأدائها وتشجيعنا على الإقبال عليها فيقدم -في بعض الأحيان- الجوائز التشجيعية لمن يؤديها منّا.

لم يجبرنا جدي على أداء السنن يوماً ولا أكرهنا على شيء من النوافل قط، ولكنه دأب على ترغيبنا بأدائها وربطنا بها ودفعنا إلى الإقبال عليها لنكون من الذين يحبهم الله ويحبهم النبي e، ولأننا أحببنا أن يحبنا الله ورسوله فقد أقبلنا على السنن والنوافل وحرص أكثرنا عليها وتمّسك بها.

* * *

هذا هو الأساس الذي اعتمد عليه جدي في تربية وتوجيه ثلاثة أجيال؛ فقد ربى إخوته وأخواته، ثم ربى بناته، ثم ساهم –بشكل فعال– في تربية أحفاده وحفيداته. بل هو قد عمل على توجيه أجيال من تلاميذه وساعد كثيراً من الآباء بالنصائح التربوية المفيدة على مّر السنين.

فلعلكم تجدون في هذه الخبرة الطويلة والتجربة الفريدة النفَع والفائدة. فإن وجدتم ذلك فتذكروا جدي بالدعاء: أن يوفقَه الله لكل ما يرضيه، و يشرَح صدره، وأن يعفَو بكرمه عن سيئاته، وينجيَه يوم الحساب.

* * *

ملامح من شخصيّة

المربّي الناجح

تَقَبُّل النقد

التواضع وتقبل النقد لا يقلل من منزلة المربي -كما يظن البعض- بل يزيده في أعين الناس رفعة واحتراماً. فشجعوا أولادكم على مصارحتكم بما يظنونه بكم بدل أن يتهامسوا بعيوبكم في الخفاء.

مَرَّ جدي بظروف مختلفة: فقد حظي عند ولادته وفي نشأته الأولى بعناية خاصة ورعاية كبيرة؛ لأنه بكر أبويه. فكان مدلّلاً مرفَّهاً، يُخدَم ولا يَخدم، ويُجاب إلى طلباته ورغباته، وإذا أخطأ عُفي عن خطئه فلا يكاد يُعاتَب أو يُعاقَب!

لكن الحال تغير فجأةً بوفاة والده.. ثم والدته.. فصار هو كبير البيت وعائلَه ولمّا يتمَّ عامه العشرين، فتحمل مسؤولية إخوته كاملةً وقام على تربيتهم والعناية بهم والإنفاق عليهم. كل ذلك وهو ما زال شاباً صغيراً لمّا يكملْ دراسته، فإذا به يرى من الحال غير ما كان ألِف ويعاني من صعوبات الحياة ما لم يكن يعرف. ولكن الله مَنّ عليه

بالعزيمة ووهبه مزايا كثيرة وأعطاه علماً واسعاً، فما لبث حاله أن انقلب إلى خير (والمؤمن كل أمره له خير) وصار من أعلام الخطابة والكتابة ومن أعظم علماء هذا الزمان وفقهائه.

لقد كان ينبغي لمن نشأ مثل تلك النشأة ثم انتهى إلى مكانة كهذه أن يتملّكه العُجْب ويظن في نفسه الكمال (كما يفعل كثير من المتعالمين وأنصاف وأرباع العلماء)، لكن الظروف التي مّر جدي بها والمكانة التي وصل إليها لم تمنعه من أن يتواضع لنا -نحن الصغار- في بعض الجلسات العائلية وفي ساعات الصفاء فيطلب منا أن نعينه على نفسه فننقده ونهدي إليه عيوبه. كان ذلك يشعرنا بالحرج ... إذ كيف لنا أن نفعل، وجدي كبير العائلة سناً وقدراً، ونحن نحبه جداً ونحترمه ونقدّره غاية الاحترام والتقدير؟ وهو لم يكن بغير عيوب. وَمْن مِن الناس يملك أن يكون بلا عيوب؟ وكنّا ندرك بعضاً من ذلك ونهّم ببيانه ثم نحجم أدباً ورهباً ونخجل ونسكت. لكن جدي كان يصّر على سماع انتقاداتنا وينتظر جوابنا، حتى إذا طال سكوتنا يشجعنا ويسعى إلى إقناعنا بقوله: "لا يوجد كمال في الدنيا، ولكل إمرئ عيوبه وأخطاؤه، لذلك قالوا:كفّى المرءَ نبلاً أن تُعّد معايبه". والإنسان -مهما كان منصفاً- لا يستطيع أن يعرف نفسه تماماً، فلا بد من مساعدته ليعرف نقائصه حتى يحاول التخلص منها، وخيرٌ للمرء أن يُبصَّر بعيبه في الدنيا مرةً أو مّرات فيسعى إلى تداركه وإصلاحه من أن يحمله عمره كله ثم يحاَسب عليه في الآخرة". فكنا نتحمس ويشجع بعضنا بعضاً، ونذكر -على استحياء، وبأدب- بعض ما نعرفه، فيشكرنا ويعدنا بأنه سيبذل

جهده لتقويم العيب وتصحيح الأمور. وإذا اتفقنا كلنا على انتقاد ما يقول: 'اشهدوا جميعاً، سوف أحاول من اليوم أن أتغلب على هذا الأمر وأصلحه، وأرجوكم أن تنبهوني كلما نسيت وعدت إليه".

ثم يسري جوٌ من المرح في هذه الجلسات ويتطور النقد من التعبير بالكلمات إلى التعبير بالحركات، إذ أن عندنا في العائلة حفيدين (أحدهما من الجيل القديم الذي شهد معي كل ما أكتبه والآخر من الجيل الجديد) يملكان القدرة على محاكاة وتقليد هيئة جدي وتصرفاته، فكان يشجع كلاً منهما على ذلك، فيترك مكانه الذي يجلس فيه دائماً ليقوم حفيده بتمثيل ما يراه فيه تمثيلاً حياً بدلاً من التعبير الشفهي، وكان يأخذ الأمر بروح رياضية ونفسية مرحة، بل ويضحك من بعض المواقف الطريفة التي يقوم بها الحفيد.

لقد قالوا قديماً: "من شبّ على شيء شاب عليه"، وأنا أدركت جدي وعمره ستون عاماً، فهل استطاع التغلب تماماً على كل عيوبه؟ بالطبع لا، لكن اهتمامه ببيان هذه العيوب وحرصه على إصلاحها وتقبله للنقد وسعيه نحو الأفضل، كل أولئك كان يجعله في نظري أكبر وأكبر ويزيدني به إعجاباً وله احتراماً وتقديراً.

* * *

هيبة المربّي

القوة لا تعني القسوة، ولو كانت كذلك لكان النبي e أضعف الناس. ليكن اعتمادكم في تربية أبنائكم على المحبة والمودة والرحمة، وتذكروا أنكم تكبرون فتضعفون ويكبرون فيقوون، فإن زرعتم فيهم المحبة صغاراً كنتم أول من يجني ثمارها الحلوة حين تكبرون ويكبرون.

كثيرٌ من الآباء ينجح في أن يكون مهاباً، قاسياً، مسيطراً على أهل بيته، يسيرهم وفق مشيئته ويضعهم تحت إمرته، يقودهم بالقوة ويوجههم بالعصا؛ لكن قليلاً منهم من ينجح في أن يضبطهم بالمحبة ويسوقهم بالمودة ويخضعهم باللطف واللين، وجدي من هؤلاء القليل. فرغم شخصيته القوية، وقدرته النافذة، وسلطته المطلقة -بصفته كبير العائلة والمنفق عليها- لم يقسُ علينا بل ربّانا بالحب والعاطفة، وشملنا بسعة الصدر؛ فكان يتابع حال كلٍّ منا ويهتم بأمورنا: يسأل عنا فرداً فرداً، ويحل مشكلاتنا المادية والمعنوية على كثرة عددنا واختلاف طباعنا. وهو قد جمع إلى هذا اللطف كله الحزَم في موضع الحزم، فكان يمازحنا حيناً ثم يعرّفنا أنه قد حان وقت الجد، يحدثنا حديثاً ثم ينبهنا أنه

قد حان وقت العمل، يعطينا الكثير ثم يطلب منا أن نقدم -بدورنا- جهدنا ليساعد بعضنا بعضاً ما وسعنا.

بهذا الأسلوب السهل البسيط استطاع جدي امتلاكنا فكان رأيه مطاعاً وطلبه مجاباً؛ نتسابق لإرضائه والقيام على خدمته. وكنا نحبه ونهابه، نمازحه ونخافه، نناقشه ثم نتبع أمره. فإن أخطأنا معه تارةً أو تقاعسنا عن ندائه مرةً رمانا بنظرة واحدة صارمة كافية لتردنا عن خطئنا. وربما أخطأ الواحد منا الخطأ الكبير فيحدجه بنظرته المخيفة تلك ثم يُسمعه كلمات واضحات قاسيات معبرات بهدوء وحزم بالغ دون صياح أو انفعال؛ **فالصياح يفقد المربي هيبته، والانفعال يقلل من احترامه ويدني منزلته**. وكانت الأمور تقف غالباً عند هذا الحد، فلا تصل إلى الضرب إلا في أحوال قليلة لا تذكر. ولقد سُبِقتُ بأربعة أحفاد ووُلِد بعدي سبعة عشر حفيداً، ولا أذكر أن جدي ضربني أو ضرب أحداً من أحفاده أمامي. ولئن كان قد اضطر في مرات نادرة إلى ضرب بعض الأحفاد -كما سمعت- فقد فعل ذلك لأن آخر الدواء الكي، فكان الضرب هو البند الأخير في قائمة العقوبات.

فإذا لجأ إلى الضرب (ومثل هذه الحالات -كما قلت آنفاً- من النوادر) فإنه لا يضرب كيفما اتفق، بل إن للضرب عنده أصولاً وقواعد؛ فنظرية جدي التي علمها بناته أن الضرب **للتأديب لا للانتقام**،فلم يعاقب أبداً أحداً لأنه كسر شيئاً دون قصد، ولو كان ثميناً، بينما عوقب يوماً أحد الأحفاد حين كسر زهرية رخيصة عبث

بها فوقعت أرضاً، وكانت علة العقاب تمّرده على القانون؛ فالزهرية للزينة ولا يجوز اللعب بأغراض الزينة.

* * *

قد يكون المربي اليوم هو الأقوى وهو الأقدر لكنه غداً الأضعف والأحوج إلى الرعاية والعناية والبر والحب، وما لم يفكر بهذا ويضعه في حسبانه فإنه الخاسر الأكبر؛ فالقهر يوغر الصدر، والظلم يورث الحقد، والكبت يؤدي إلى التمرد، والضغط يولّد الانفجار.

المرء مطالَب أن يعطي قبل أن يأخذ، وعلى المربي -إن أراد أن يُسَمع ويُطاع- أن يقدم أولاً المحبة والاهتمام. تلك قاعدة ذهبية في التربية طبقها جدي في حياته وعلاقته ببناته وأسباطه. ولقد بلغ جدي اليوم التسعين وتغيرت فيه وفي مَنْ حوله أشياء كثيرة إلا الحب والود اللذين زرعهما فينا وربانا عليهما، واللذين ما يزالان يحملاننا على زيارته وبّره والسعي إلى إرضائه في كل حال وفي كل حين.

* * *

مع الصّغار

في عالم الصّغار

تعلمت من جدي أن أنزل إلى مستوى الصغار لأفهمهم، وأن أعيش ساعات في عالمهم لأوجههم، فوجدت أن كلمة –من التوجيه– في جو من المودة والقرب والاسترخاء تعدل ألف كلمة في جوٍ من التّوتر والجد والانفعال.

كان جدي لطيفاً معنا –ونحن صغار– غاية اللطف ودوداً كل المودة، يرحب بنا إذا دخلنا غرفته، تاركاً ما بيده، مقبلاً علينا، فيجلسنا على ركبتيه، ويحاورنا و يمازحنا ويتفاعل مع قصصنا فيظهر السرور لفرحنا والحزن لألمنا.

وكان إذا وجد منا فتوراً يبتكر أي أسلوب ليدخل البهجة إلى قلوبنا، فتارة يبني لنا من وسائد الكنب بيتاً نلعب فيه، وحيناً يصنع لنا طعاماً خفيفاً نسّر بتناوله. بل إن أختي أرادت يوماً أن تلعب الشطرنج وهي صغيرة لما تتم الخامسة، ولم يقبل أحدٌ أن يلعب معها لأنها أصغر

من أن تفقه في الشطرنج شيئاً، فلعب معها بنفسه مجاملةً لها وحرصاً على مشاعرها!

وذات يوم لمس منا ضجراً شديداً، ومللاً كبيراً، ففاجأنا بنزهة لم ننسَ روعتها إلى اليوم: نزل بنا إلى الشارع ثم اقترح أن يختار أصغر حفيد بيننا الطريق الذي نسلكه:يميناً أم يساراً أم إلى الخلف أم إلى الأمام. فاختار ما بدا له من اتجاه، ومضينا في ذلك الدرب حتى وصلنا أول تقاطع طرق، فاختار الحفيد الذي يلي بالسن: أنمضي إلى الأمام أم نلتفت يمنة أم يسرة... وهكذا، كلما وصلنا تقاطعاً اختار أحدنا وجهتنا. كل ذلك وجدّي ماضٍ معنا منتبهٌ ألا يقطع أحدنا الطريق بغير انتباه أو يبتعد أي واحد عن المجموع، يسمي لنا الشوارع ويعرفنا الاتجاهات، ويقص علينا بعض الطرائف أو الذكريات التي تذكره بها الأماكن التي نمر بها.

وما زالماضياً معنا يُسمعنا الفوائد ويروي لنا الحكايات ويدربنا على المشية الصحيحة بالجسمٍ الممدود والظهر المشدود، حتى وصلنا إلى ضفة النهر، فاسترحنا قليلاً وتمتعنا بمراقبة الضفادع تتقافز إلى الماء ونقيقها العجيب يقطع سكون المكان الجميل. لبثنا هناك ما شئنا حتى اطمأن جدي أننا قد اكتفينا وقنعنا بذلك القدر فاستقّل سيارة أجرة عادت بنا إلى البيت.

* * *

كان ذلك منذ أكثر من ربع قرن، وهو أمر أنفق فيه جدي ساعات ليس غير، ولكنه سيبقى حدثاً ماثلاً في أذهان الذين شاركوا فيه من الأحفاد ما عاشوا، يحملونه ذكرى جميلة في عقولهم وإحساساً حلواً في قلوبهم يدفعهم إلى السعي لإدخال السرور إلى قلوب الصغار في كل وقت وفي كل آن.

فيا أيها الآباء:

ادخلوا إلى عالم أولادكم وعيشوا معهم في الجو الذي يعيشون وخاطبوهم باللغة التي يفهمون ويألفون. ابتكروا في أساليب الترفيه مما يُشعر أبناءكم بتفوقكم الكبير عليهم حتى في عالمهم، فيستجيبوا لكم، ويسهل عليكم قيادهم. احملوا السرور إلى حياتهم واحرصوا على تسليتهم بما هو مباح، واعلموا أن لكم بالفرحة التي تُدخلونها إلى قلوبهم أجراً ومثوبة من الله. ثم استغلوا هذه اللحظات من القرب والتبسط لتوجهوا كيف تشاؤون وتزرعوا من المفاهيم والقيم والأفكار ما تريدون.

* * *

المراقبة و المتابعة

تابعوا أولادكم أولاً بأول، وراقبوا سلوكهم خفية عنهم، فإن في ذلك عوناً كبيراً لكم على معرفة ما ينطوون عليه، ومن ثم توجيههم بطريقة صحيحة.

كانت دار جدي القديمة في دمشق داراً فسيحة مريحة ذات حديقة كبيرة جميلة تزينها بعض الأشجار المثمرة وتتوسطها بركة صغيرة تلطف حر الصيف وتزيد من جمال وفتنة المكان. تلك الحديقة كانت مركز اجتماعنا -نحن الأحفاد- نمضي فيها معظم يومنا باللهو واللعب؛ نتفق غالباً ونختلف في بعض الأحيان، وكنا كثيراً ما نحّل مشكلاتنا بأنفسنا (كما يصنع معظم الصغار) ولكن الخلاف كان يتطور في بعض الأوقات إلى شجار واشتباك بالأيدي فيعلو صراخنا ونستنجد بالكبار لينصفوا المظلوم من الظالم، ويعيدوا الحق إلى نصابه، ولكن: أين الحق؟ ومن الظالم؟ ومن المظلوم؟ هذا ما كان يحّير الكبار دائماً، فكلٌّ منا يروي أحداث المشكلة حسبما رآها هو، أو يركز على ناحية معينة، فيرى الحق مع فلان لأنه أخوه، أو لأنه ضعيف. ومنا من يخفي

بعض الحقائق خوفاً من العقاب، أو لجعل الحق في صالح أحد الأطراف. ومنا من يكون مشغولاً غائباً عن المشكلة ومع ذلك لا يخلو أن يتبرع بالشرح والبيان والتعليق والاتهام. كل ذلك كان يحول دون معرفة المعتدي وتمييز الظالم من المظلوم مما يجعل العقاب جماعياً في كثير من الأحيان فنُحرَم من اللعب في الحديقة لساعات أو نتعرض للضرب أو للتوبيخ الشديد مما يؤدي إلى ازدياد المشكلات بيننا وإلى كثرة المخاصمات والمعاتبات.

* * *

اقترح جدي علاجاً لهذا الموضوع بحكم خبرته، فقد عمل قاضياً لفترة طويلة من الزمن، وكان هذا الاقتراح فرصةً ترتاح فيها أمهاتنا من الشكاوى التي لا تنتهي والمشكلات التي لا تتوقف. فبدأ بالاستفسار من أمهاتنا (مع أنه كان يعرف الكثير عنا) عن سلوكنا في الأحوال العادية وعن طباعنا وأسلوب كلٍّ منا في حلّ مشكلاته ومنهجه في التعامل مع إخوته ورفاقه، وبذلك كوّن فكرة واضحة عن كل واحد منا. ثم صار يلقي نظرة علينا بين حين وآخر -ونحن نلعب- من نافذة غرفته التي تطل على الحديقة ليتأكد من حسن سلوكنا، فإذا لاحظ شيئاً مريباً على أحد منا نبّهه آخر النهار دون أن يلاحظ الآخرون. وعندما تبدأ المشاجرات ويعلو الصراخ يقف جدي بهدوء خلف النافذة مراقباً بدقة ما يحدث بيننا، منتبهاً لما يقول كل واحد أو يفعل، ونحن -لفرط انشغالنا واندماجنا في المشاجرة- لا نراه ولا نشعر بوجوده، فنظهر أمامه على حقيقتنا ويعلم المفسد من المصلح ويميز الظالم من المظلوم، ثم

يخرج إلينا دون أن يشير إلى مارآه فيسأل ويحقق (وهو عالم بحقيقة ما جرى) ويوقع العقاب على الذي يستحقه فقط.

* * *

لقد كان ذلك من جدي أسلوباً جديداً فريداً متميزاً، فمراقبة الأطفال بشكل دائم والتعرف على سلوكهم (حتى في لحظات الصفاء) من أهم الأساليب التي تساعد على التربية والتوجيه وإصلاح الأخطاء قبل أن تستفحل ويصعب علاجها، وهي تمنح الأولاد ثقة بأن أهلهم على اطلاع دائم على ما يجري بينهم فتقل المشاجرات وتنتهي المشاحنات.

* * *

الصّدق مع الصِّغار

أبناؤنا يتعلمون الصدق حين نصدق معهم، وصدقنا معهم يدفعهم إلى الثقة بنا والاطمئنان إلينا. لا تظنوا أن الصغار لا يميزون، بل هم يدركون إن كنا معهم صادقين أو كاذبين.
ولا تحاولوا حملهم على أي عمل بإخفاء ما له من جانب سلبي، بل اعترفوا بهذا الجانب وغالبوه بالتشجيع.

حدثتني والدتي أنها اشتكت –وهي صغيرة–ألماً دائماً في بطنها، فلما فحصها الطبيب وجد أنها تحتاج أن تُصوَّر صورة شعاعية لتقصي سبب المغص والألم. وكانت الصورة لا تتم إلا بعد أن يتناول المريض شَربة من الملح الإنكليزي ذي الطعم البشع والرائحة الكريهة. فلما رأت أمي شكله وشمّت رائحته استبشعته ورفضت تناوله. حاولت جدتي إقناعها بأن طعمه ليس كرائحته، ورغّبتها في تذوقه، فلما تذوقت بعضاً منه ازدادت عزماً وتصميماً على ألاّ تشربه مهما حصل، فغضبت جدتي وسَعَتْ إلى إجبارها على تناوله وهي رافضة متمنّعة، فلما أعياها الترهيب لجأت إلى

الترغيب فراحت تحاول إقناعها مؤكدة أن هذا الدواء لذيذ الطعم، وهي لا تزداد إلاّ عناداً وتصميماً.

سمع جدي الضجيج فجاء من غرفته مستطلعاً الأمر، فلما وقع على تفصيله طلب من جدتي أن تترك الأمر له، ثم التفت إلى والدتي فقال لها: "يا بنيتي، سأكون صادقاً معك؛ لذلك لن أقول لك إن هذا الدواء ذو طعم لذيذ، إنه كريه ولا يمكن شربه، بل إن طعمه لا يُطاق، وقد احتجتُ يوماً لتناوله فلم أفعل لشدة كراهته وآثرت احتمال الألم على تجرع طعمه الكريه، ولكني آمل أن تكوني أشجع مني وأقوى وأمضى عزيمة فتفعلي ما لم أقدر أنا عليه، ويتم لك الشفاء بإذن الله". قالت أمي:عندما صدقني والدي شربتُه جرعةً واحدة وأنا سادّةٌ أنفي مغمِضةٌ عينّي؛ لشعوري بأنه مقدِّر لمعاناتي غير مستخفٍّ بآلامي.

* * *

إن الأطفال أذكى مما نتصور؛ فهم سرعان ما يكتشفوننا إن كذبنا عليهم، فيلجؤون إلى الأسلوب ذاته في تعاملهم معنا، فيكذبون هم علينا. والكذب من أبشع الطباع، ولكنه من أسهلها اكتساباً ومن أصعبها علاجاً، وكثيراً ما يلجأ إليه الأطفال للحصول على كسب أو الهروب من عقاب. ونحن -رغم صدق أهلنا معنا وصدقنا معهم- حاولنا اللجوء إلى الكذب (في بعض المرات) خوفاً من العقاب، فما تساهل جدي -أبداً- في هذا الأمر، إلا أنه عالجه بالحكمة البالغة. فإذا شك أن أياً من أحفاده كذب استدعاه فوعده، إن صدقه القول، ألاّ يعاقبه، فيفهم منه حقيقة المسألة ثم يكتفي بتوجيهه وتعليمه حتى لا يقع في الخطأ

مرة ثانية. بهذا الأسلوب الجيد علمنا قول الصدق، فما زلنا نصدقه ونصدق أمهاتنا -آمنين من العقوبة طامعين في العفو جزاء الصدق- حتى صار الصدق طبعاً من طباعنا، ثم صرنا -من بعد- نصدق ولو أيقنّا بالعقاب.

* * *

لقد نشأنا -نحن الأحفاد- على الصدق والاستقامة والصراحة في علاقتنا بجدنا وأمهاتنا: فعندما بلغنا السابعة وأُمِرنا بالصلاة لم يقل لنا جدي إن الصلاة عمل سهل ممتع، وعندما بدأنا بتغطية رؤوسنا، ولما نبلغ العاشرة، أخبرنا -صراحةً- أن الحجاب قيد صعب. لقد كان يعترف بالجانب السلبي للأشياء دائماً ويعمد بعد ذلك إلى التشجيع والتحفيز بأساليبه المبتكرة والعجيبة.أليس الحجاب قيداً صعباً للفتاة، وخاصة في مستهل شبابها وأول تفتحها؟ أدرك جدي ذلك فلم يسَع إلى إيهام أيٍّ من بناته أو حفيداته بخلافه، بل بالغ في وصف صعوبة المسألة (في الظاهر) واتخذ كل أسباب التشجيع والترغيب (في الخفاء)؛ فعندما أرادت كبرى بناته أن تضع الحجاب أرسلها مع جدتي إلى السوق فاشترت لها، بناء على طلبه، أغلى وأجمل خمار، حتى لأظن جدي دفع ربع راتبه الشهري -وكان وقتئذ قاضياً- ثمناً له، فكانت النتيجة أن خالتي شعرت بالفخر والزهو لما ذهبت إلى المدرسة والخمار الثمين النفيس فوق رأسها فتسابقت الفتيات إلى تقليدها وصار حجابها كسباً لها بدل أن يكون عبئاً عليها.

كان هذا هو منهج جدي دائماً في التعامل مع التكاليف والواجبات، الدينية منها والدنيوية، يدفع إليها ويرغّب فيها ما استطاع، ولكنه لا يستعين على ذلك بإغفال صعوبتها أو بأن يزعم لها من المتعة والسهولة ما ليس فيها. انظروا إليه يحدث -في بعض كتبه- عن الطاعات والواجبات: "كل المعالي ثقيلات على النفس: ترك التلميذ الرائي والإقبال على الدرس ثقيل، وترك العالم مجلس التسلية والاشتغال بالقراءة والإقراء ثقيل، وترك النائم فراشه والنهوض إلى صلاة الفجر ثقيل، وهجر الرجل زوجه وولده ومشيه إلى الجهاد ثقيل -ولا تنكروا وصف الدين بأنه ثقيل فالله سماه بذلك في القرآن:{ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً}- لذلك تجد الطالحين أكثر من الصالحين، والغافلين السادرين في الغي أكثر من الذاكرين السالكين سبيل الرشاد".

وكبرتُ فتزوجت وصرت أماً ولم أنسَ هذا الدرس؛ فكنت أبحث -مع أبنائي- عن الجانب السلبي في أي أمر فأعترف به بصدق غير مواربة ولا متهرِّبة، ثم أعمد إلى الجانب الآخر الإيجابي فأغلّبه عليه وأستعين على الإقناع به بالترغيب والتشجيع. وأيُّ أمرٍ -مهما كان صعباً وسلبياً- يخلو من الإيجابية والخير؟

* * *

التربية بالتشجيع

أهمية الثناء

هل يمكن أن يخلو أحد من خصلة حميدة أو صفة خيّرة؟
ابحثوا عن مثل هذه الخصال والصفات لدى أبنائكم وأثنوا عليها في كلٍ وقت وبكل مناسبة يكن في مثل هذا العمل أعظم دافع لهم على الاستزادة منها والمداومة عليها.

"علم النفس"من العلوم التي اهتم بها جدي فقرأ فيه كثيراً دارساً أحوال النفس البشرية، مطّلعاً على ما يعتري الإنسان من مشاعر وتغيرات تبعاً للأحوال التي يعيشها والظروف التي يمر بها. وبحكم عمله قاضياً ثم مدرساً صُقلت لديه هذه المعرفة النظرية وتحولت إلى موهبة حقيقة، حيث صار يتميز بقدرته الدقيقة والسريعة على تحليل الشخصيات بعد دقائق قليلة من اللقاء الأول، وبالتالي القدرة على التعامل معها. (وهذه هي الخطوة الأولى: على المربين أن يبذلوا الجهد في القراءة والاطلاع).

على الرغم من هذه الفراسة التي اكتسبها جدي كان يراقبنا دائماً ليتأكد من انطباعاته عن كل واحد منا: كيف نقضي وقتنا؟ ما هي هواياتنا؟ وكيف نستفيد من قدراتنا؟ كيف نتعامل مع الآخرين صغاراً وكباراً؟ ما هي النواحي الإيجابية في سلوكنا وما هي النواحي السلبية؟ (وهذه هي الخطوة الثانية: راقبوا أولادكم دائماً لتعرفوهم جيداً).

ثم يبدأ مع كل حفيد بالثناء والمدح الصادق فيختار الأعمال الجيدة التي نقوم بها فعلاً والتي تستحق الإطراء فيثني علينا لقيامنا بها ويشكرنا لأجلها. كما كان يركز على النواحي الإيجابية في شخصية كل حفيد منّا مثنياً عليه أمام الجميع ثناء علنياً، مقدماً له الهدايا البسيطة التشجيعية بين وقت وآخر. (وهذه هي الخطوة الثالثة: التركيز على النواحي الجيدة والثناء عليها).

هذه الطريقة بالمعاملة منحتنا الثقة بالنفس، ورفعت معنوياتنا، وأشعرتنا بأن الناس أيضا يرون العمل الصالح ويقدرونه ويشكرون عليه فيجب علينا –لذلك– مراقبة سلوكنا حتى يكون مناسباً. كما أن طريقة جدي هذه قد بَنَتْ بيننا وبينه المحبة مع الثقة عندما لمسنا اهتمامه الخاص بنا، فسهّلت له عملية تربيتنا وتوجيهنا ومهمة نصحنا وإرشادنا، وجعلتنا نتقبل منه النقد كما كنا نتقبل منه المديح، فكان إذا نبهنا إلى سلبية حاولنا التخلص منها فوراً سعياً نحو الأفضل وحرصاً على ثواب الله ثم رضا جدي وثنائه علينا أمام الجميع .

* * *

أساليب مبتكَرة للتشجيع

التشجيع أعظم أداة يملكها المربون، ولكن إلى أي مدى ينجحون في استثمار هذه الأداة التي يملكون؟ اجتهدوا في ابتكار وسائل التشجيع وجربوا بعضاً من الأساليب المذكورة فيما يلي، وستجدون أن النتائج التي حصلتم عليها تفوق كل ما كنتم تتوقعون.

الأطفال -بطبعهم- سريعو الملل، وهم دائمو الرغبة في الإثارة والتجديد، كما أن الواحد منهم قد يكسل عن أداء العمل أحياناً، بل ربما تنتابه في بعض الأوقات حالات من التمرد يكون فيها مستعداً لتقبل العقاب مقابل التهرب من تقديم الجهد وتجنّب تنفيذ العمل المطلوب!

جدّي كان -بحكم خبرته التربوية الكبيرة وتجربته الطويلة في التعامل مع الصغار- يستبق هذه المواقف والحالات ويعدّ العدة دائماً لمعالجة الصعاب وإيجاد الحلول للمشكلات المتوقع حدوثها قبل أن

تحدث، معتمداً في ذلك على مبدأ المكافأة والتشجيع بأساليب عجيبة مبتكرة تُشعر الصغار بالأهمية والتفرّد.

كانت لجدي خزانة خاصة لا يملك مفاتيحها غيره، يضع فيها مجموعة من الأشياء يسميها: "النفائس". تلك النفائس كانت مجموعة من الطرائف والهدايا متنوعة الأشكال والأحجام والأنواع، مما يناسب الصغار والكبار والذكور والإناث من الأحفاد. كانت هذه النفائس تصل جدي خفيةً دون أن نراها، فيحتفظ بها سرّاً، ثم يقدمها في الوقت المناسب مكافأةً لمن يستحقها، أو تشجيعاً وتحفيزاً لمن يظن أنه يحتاج إلى التشجيع والتحفيز. وكانت هذه الأشياء في تجدد وتغيير مستمرين، فكلما ذهبت بنت من بناته الكبيرات إلى السوق أعطاها مبلغاً من المال وأوصاها -من جديد- أن تشتري له المزيد من هذه الطرائف والأشياء الجميلة التي تُفرح الأطفال، وما أكثر ما يُفرح الأطفال!

وكان يحتفظ -في خزانته تلك- بكمية كبيرة من الأوراق النقدية الجديدة، يُؤتى بها من المصرف جديدةً نظيفةً لمّا تتداولها أيدي الناس، متسلسلةَ الأرقام متعددةَ الفئات (آحاداً وخمسات وعشرات)، فيقدم منها بين وقت وآخر ورقة أو أكثر لهذا أو ذاك مكافأة على عمل حسن أو احتفاء بإنجاز متميز. وكنا -صغاراً- نفرح بهذه الأوراق النقدية الجديدة أيما فرح ونتنافس في حفظها والاستزادة منها فيكون هذا التنافس باعثاً لمزيد من الاجتهاد في السلوك الجيد والعمل المحمود. بل إنه كان يخطّ -أحياناً- بالثلث اسم صاحب المكافأة على ورقة النقد. وما يزال بعض

الأحفاد يحتفظون ببعضٍ من تلك الورقات النقدية التي خُطَّتْ عليها أسماؤهم بعد أكثر من عشرين سنة على كتابتها!

* * *

أما الإبداع المتميز في التشجيع والمكافأة والثناء فقد ظهر في ابتكار جدي **لشهادات التقدير**. فقد كان يخطّ لنا ببعض الخطوط العربية الجميلة شهادات كتلك التي تقدمها المدارس والمعاهد والجامعات، تذكاراً أو تقديراً لإنجاز متميز قام به واحد من الأحفاد الصغار. مرةً فازت إحدى الحفيدات –وكانت صغيرة جداً– بشهادة تقدير لأنها نجحت بصنع الشاي دون مساعدة من أحد، وقد خطّط جدي الشهادة ثم عرضها على مَنْ شهد الواقعة من الكبار من خالاتي وأزواجهن فوقّعوا عليها شاهدين! ومّرةً استحقّ أحد الأحفاد شهادةَ تقدير مهيبة اسمها "شهادة الذوق الرفيع في إعداد المائدة" لأنه رتّب مائدةً العشاء بذوق ونظام. وعندما صام حفيد له صغير لأول مّرة يوماً كاملاً وعمره خمس سنين كتب له هذه الشهادة:

"بسم الله الرحمن الرحيم.. يوم الأحد غرة رمضان 1411.. أول يوم صامه فلان وفقه الله وجعله من الصالحين ..مكة المكرمة".

ولم يكن جدي يبالغ في منح هذه الشهادات بكل المناسبات، بل كان يتخّير ما يظنه مناسبة هامة أو إنجازاً متميزاً لواحد من الصغار. فمن أجل ذلك بقيت لهذه الشهادات قيمتها الرفيعة وأهميتها الكبيرة، وكان لها معنى عميق يشعر معه من يتلقاها بالفخر والاعتزاز، حتى

لأعرف شهادات ما زال أصحابها -من الأحفاد- يحتفظون بها ويقدرونها كل التقدير وقد مضى على "منحها" لهم قرابة ربع قرن وغدوا كباراً يافعين دون أن ينسوا لذّة استلامها ومتعة الفوز بها!

* * *

من العقاب إلى الثواب

الإكثار من التهديد والمبالغة في العقاب أسلوبٌ تربوي غير صحيح ولا يكاد يوصل إلى نتيجة. الجؤوا إلى أسلوب التحفيز ورّوحوا عن أولادكم مرة بعد مرة بالمكافآت والهدايا، فلعله الأسلوب الأجدى أحياناً. هذه وصفة جاهزة فجربوها.

كنت أحب دار جدي القديمة القائمة في دمشق على سفح جبل قاسيون حباً جمّاً، وكنت أفرح كثيراً بزيارة جدي وأسّر باللقاءات العائلية التي تكون فيها سروراً كبيراً، إلى أن اضطررت وعائلتي للإقامة بها فترة من الزمن (ريثما انتهت أعمال البناء في دارنا الجديدة) في الوقت الذي كان جدي غائباً في السعودية. عندها شعرت بالوحدة والوحشة شوقاً إليه، ولم يكن يخفف عني وعن أخواتي هذا الشعور غير زيارات خالتي المقيمة في عمان، والتي كانت تتردد على بيت جدي –كل حين– مع أولادها ، مما يملأ البيت بالحياة، ويعيد جو الصخب الذي

افتقدناه، ويبعث البهجة في قلوبنا، فنقضي النهار نلعب ونتحدث مع أولاد خالتنا الصغار.

وكان يزيد بهجتنا أننا كنا نعامَل -عندئذ- كالكبار: فإذا حضر وقت الأكل أعدت لنا أمهاتنا الطعام على الطاولة، ثم يتركننا فنبقى وحدنا (دون إشراف) نأكل ونتحدث، وكنا -لفرط سرورنا- نأكل ببطء، أو نترك الطعام فنلعب ونضحك، مما كان يزعج أمهاتنا ويدعوهنّ إلى تنبيهنا بين حين وحين لنكف عن عبثنا ونتوقف عن لعبنا ونسرع في تناول طعامنا. وكنا نحب أمهاتنا ونجتهد في طاعتهنّ، لكن سعادتنا وشعورنا بالحيوية والنشاط كان يلهينا -في بعض الأحيان- عن تلك التوصيات وينسينا النتيجة المترتبة على إهمالنا لها فنستحق العقاب.

وعندما جاء جدي (في العطلة الصيفية) ورأى ما يحدث دخل علينا المطبخ فجأة ثم تناول من حامل الصحون ثلاثة أطباق، فوضع في أولها عشر ليرات سورية، وفي الثاني سبع ليرات، وفي الثالث خمساً، ثم التفت إلينا قائلا: أنتم الآن في مسابقة "مَنْ ينهي طعامه أولاً؟" وهذه الليرات هي جوائز المسابقة، وأنا أنتظر الفائزين الثلاثة في غرفتي ... ثم خرج من المطبخ؛ فامتلأنا حماساً وتسابقنا للحصول على الجائزة الأولى.

فما الذي فعله جدي ؟

1- لقد نقلنا من جّو التهديد بالعقاب إلى جّو التربية بالثواب، بلمسة مبدعة أثارت حماستنا وجعلتنا نسعى إلى الفوز والنجاح.

2–واللمسة المبدعة الثانية أنه جعل إنهاء الطعام هدفنا (وهذا ما كانت تريده أمهاتنا ويسعين إليه)، فحملنا على الإسراع بالطعام بدافع ذاتي ، وبرغبة داخلية.

* * *

هذا مثال واحد لأسلوب مبتكر في التربية والتعامل مع الأطفال، لكنه أثبت –مع التجربة– فعاليته؛ فلا يمكن أن تكون التربية دائماً بالتهديد والوعيد والإجبار، بل الأَوْلى أن نجعل أطفالنا يسلكون الطريق الصحيح وكأنهم قد اختاروه بأنفسهم (وليس بإيحاء منّا) مما يجعلهم يتمسكون به في حضورنا وغيبتنا، ويحرصون عليه في كل الأوقات.

* * *

تقويم علاقة
الوالدين بالأولاد

التربية على برّ الوالدين

البرّ ليس درساً يُلقى على الأبناء ليحفظوه، بل هو منهج في الحياة يُنشّؤون عليه ليمارسوه ويعيشوه. درّبوا أبناءكم على تقدير جهود أمهاتهم وآبائهم وعلموهم أن يشاركوا في العمل ويتحملوا المسؤولية ويخدموا أنفسهم بأنفسهم.

ما رأيت والداً يحب بناته حب جدي لبناته، أو يرعاهن كما رعاهن، وما قابلت عاطفة أبوية كتلك التي يكنها لهن. كان يستيقظ في الليالي الباردة ليتفقدهن فينزل من غرفته التي تقع في الطابق الثالث إلى غرفة بناته في الطابق الأول مارّاً بمساحات مكشوفة -وهكذا كانت البيوت قديماً في دمشق- فيناله البرد ويبلّله المطر ريثما يصل إليهن فيغطيهن جيداً واحدة واحدة، فإذا صادف إحداهن مستيقظة تعاني من الزكام أو مصابة بنوبة من السعال أخذها إلى غرفة الجلوس فأوقد لها المدفأة ثم صنع لها كوباً من الزهورات، ويعطيها بعض الأدوية، ولايدعها حتى يطمئن عليها وتهدأ آلامها، ثم يعود بها إلى سريرها ويرجع إلى نومه.

والحقيقة أن جدي بالغ في حرصه ومحبته فكان يمنع الواحدة من بناته من الذهاب إلى المدرسة إن حدث وتأخرت في النوم حتى لا يصيبها الإرهاق أو المرض من قلّة النوم! سلوك غريب لم تقابل مثلَه مديرةُ مدرسة البنات التي نفد صبرها يوماً فأمسكت بيد والدتي وقادتها إلى ساحة المدرسة الممتلئة بالطالبات ثم قالت لها: انظري! كم عدد البنات الموجودات في هذه المدرسة؟ فهل أنت الوحيدة -دون أولئك- التي يحبها ويخاف عليها والدها؟! وهذا -فعلاً- من غرائب جدي التي تميز بها عن الناس فكان حريصاً دائماً على راحة بناته مشغولاً بهن، يفكر فيهن الليالي الطوال، يؤنب من يسيء إليهن، ويغضب ممن يتطاول عليهن.

* * *

يقولون: رب ضارة نافعة، وهذا ما كان. فإن حرص جدي على بناته وحبه الشديد لهن جعله ينتبه لقضية البر والطاعة وعدم عقوق الأمهات، فكان يحرص على إدخال هذه المفاهيم والقناعات إلى رؤوسنا كلما وجد فرصة مناسبة، وكثيراً ما تأتي هذه الفرصة. فتنبيهات أمهاتنا الكثيرة والملاحظات المستمرة كانت تشعرنا بالاضطهاد والظلم، وتخيل إلينا أننا لا نعني شيئاً لأهلنا؛ فرغباتنا غير مهمة، وطلباتنا غير مجابة، وآلامنا وآمالنا مهملة... شأننا شأن كل طفل رُفض طلبه وكُبتت رغبته. كان جدي يتعاطف بشدة معنا فيسمعنا ويجتهد في فهمنا، ثم يؤكد أنه لو كان مكاننا لشعر بنفس الشعور ولعانى نفس الألم لأنه لا يرى إلا رغباته ولا يشعر إلا بآلامه، فماذا لو نظرنا

للقضية كما تراها أمهاتنا؟ إذن لتغير الأمر. وماذا لو علمنا عظم حق أمهاتنا علينا؟ وكان لا يمل هذا الكلام ولا يسأم من إعادته على مسامعنا وتذكيرنا به في كل حين وبكل أسلوب. فتارةً يروي لنا الأحاديث الشريفة، وأخرى يقصّ علينا بأسلوبه الشيق بعض قصص الصحابة مع أمهاتهم، ويحذرنا غضب الله -إن عصينا- في الدنيا قبل الآخرة، ويرغّبنا بثواب الله -إن أطعنا- والأجر في الدنيا قبل الآخرة؛ فالبر يوفق الإنسان في كل عمل يقوم به ويجعل دعاءه مستجاباً وولده -من بعد- باراً. حتى إنه -لما كتب لي في مفكرتي كلمات قليلة للذكرى- أوصاني في آخرها أن أكون بارة بوالدتي مطيعة لها معترفة بحقها.

وكان يؤنب بشدة الحفيدَ الذي يجلس مسترخياً وأمه تعمل (أيّ عمل) دون أن يعرضً مساعدته، ويغضب من الحفيد الذي يختار لنفسه مجلساً أفضل من الذي اتخذته أمه إلا أن يدعوها إليه. وكان يأمرنا بإكرام أمهاتنا بعد الغداء فنعد لهن القهوة والشاي يشربنها بحضرة جدي ونتولى نحن ترتيب المطبخ ثم نلتحق بالمجلس. وكان يحب أن يعتمد كلٌّ منا على نفسه فلا يكلف أمه أي عمل يستطيع هو القيام به، فكان يستعجل تعلمنا لكل المهارات اللازمة والأعمال التي لا غنى عنها حتى نكف بأسنا عن أمهاتنا؛ فكنا نعتمد على الساعة لإيقاظنا ونعدّ شطائرنا ونكوي ملابس المدرسة بأنفسنا، ونرتق الثوب ونلمع الحذاء.

وكانت لنا أسوة في جدي الذي ما ذكر أمه مرة إلا فاضت عيناه، حتى بعد مرور خمسين سنة على وفاتها، فكنت أخشى أن أفقد أمي كما فقدها هو فأقضي عمري متحسرة نادمة على إغضابها؛ وذلك حملني على أن أسعى لأكون بارة بها البرّ الذي يرضيها عني ويرضي عني الله.

* * *

أيها السادة، لقد كثرت هذه الأيام الشكوى من عقوق وتمرد الأبناء، وفشلت الأمهات في علاج الداء والحصول على الدواء الناجح؛ لأن من شبّ على شيء شاب عليه، فإن لم يُربَّ الطفل منذ أول يوم على البر والطاعة فلن ينفع معه بعدها أي أسلوب. وهذه، والله، من أهم القضايا؛ فالعقوق من الكبائر التي قرنها الله بالشرك وبالغ في التحذير منها. من أجل ذلك اهتم جدي بهذا الأمر منذ كنا صغاراً ودأب على تذكيرنا به دائماً وفي كل مناسبة حتى كبرنا وبُرُّ أمهاتنا وآبائنا من أعظم الأولويات في سلّم اهتماماتنا ومقاصدنا.

* * *

العقاب الرادع

عقابٌ واحد في الوقت المناسب وبالطريقة الصحيحة يغني المربين عن عشرة. فإذا حزمتم مع أولادكم وشرعتم في العقوبة فاكبتوا عواطفكم ولا تتراجعوا ولا تفسدوا أثر الحزم بالعاطفة والدلال.

استأجر جدي ذات صيف -و قد حيل بينه وبين بلده دمشق- منزلاً كبيراً في منطقة ريفية جميلة هادئة في أحد مصايف الأردن ليضم شمل جميع أفراد عائلته المتفرقين في البلاد. وفي ذلك المنزل قضينا أياماً رائعة استمتعنا فيها بصحبة جدنا وسررنا باجتماعنا بعد طول الفراق، لكن البيت كان بلا كهرباء فلم يمكن استعمال ما يعمل بالكهرباء من أجهزة وأدوات (بما فيها غسالة الملابس الكهربائية). وهنا كانت المشكلة: فقدكنا نقضي النهار -نحن الأحفاد الصغار- حول البيت نلهو ونلعب في الحدائق والبساتين الواسعة، بين كروم العنب وتحت الأشجار الوارفة، ثم نعود مساءً وقتَ النوم وقد اتسخت ملابسنا وغطّتها الأتربة وتناثرت

عليها بقع العنب وآثار الفاكهة، فنغتسل ثم ننام، تاركين أمهاتنا ساهرات أمام أطباق الغسيل في الحمام، كل واحدة منهن تغسل ملابس أولادها. وفي الصباح يجد كل حفيد منا ملابسه نظيفة مرتبة، ويتلقى قبل خروجه إلى اللعب توصية من أمه بأن يلعب بحذر وهدوء ليحافظ على نظافة ملابسه وأناقتها حتى لا تضطر أمهاتنا إلى غسلها كل يوم. ولكنا كنا نندمج سريعاً في اللعب فننسى كل التوصيات ولا نكترث ولا نبالي بغير اللعب الممتع، ثم نعود مساء وقد اتسخت ملابسنا شأنها كل يوم. فماذا تفعل الأمهات عندئذ؟ تكرر التنبيه.. توبخ بشدة.. تضرب.. تمنع طفلها من اللعب خارج المنزل.. ولكن ذلك كله لا يفيد، ويبقى الأولاد على سلوكهم بلا تبديل ولا تعديل.

* * *

فماذا فعل جدي عندما علم بالأمر وكيف حلّ المشكلة؟

لقد عالج الموضوع بطريقته الخاصة بأسلوب مبتكر، استعمله مرة واحدة فقط، بحزم، وبصورة توحي بالقسوة، لكنه كان العقاب الرادع الذي جعلنا نحافظ على نظافة ملابسنا، ومنعنا أن نكون أنانيين لا نفكر إلا بأنفسنا وسعادتنا ومتعتنا ناسين حق أمهاتنا. لقد فاجأَنا ذات ليلة –وقد عدنا من اللعب في الحقول منهكين متعبين نحلم بالراحة والنوم العاجل في الفراش– فألزم كل واحد منا أن يغسل ملابسه وينظفها، قبل أن ينام، كما كانت تفعل أمه تماماً. اعتذرنا

ورجونا جدي أن يعفينا من تلك المهمة ويسمح لنا بالنوم، لكنه رفض اعتذارنا وأصّر على تنفيذ الأمر... فامتثلنا راغمين .

تعبنا يومها كثيراً ، وتّجرحت أيدينا الصغيرة الناعمة، وأخذ منّا الغسيل وقتاً وجهداً كبيراً ، وأنهكنا النعاس (حتى أشفقت علينا أمهاتنا فرجون جدي أن يعفو عنا ويسمح لنا بالنوم، وهو مصمم على المضي في العقاب). لكن العلاج كان شافياً والعقاب حاسماً، فلم نعد لمثل ذلك السلوك من بعد أبداً طوال الصيف، وصرنا من يومها أكثر تقديراً لتعب أمهاتنا وحرصاً على أن نجنبهّن الجهد والعناء. ربما بدا جدي قاسياً في تلك الليلة، ولكن أتظنون أننا كنا سنقّوم سلوكنا ونتخلى عن أنانيتنا وأثرتنا بغير ذلك الألم وبدون تلك المعاناة؟

* * *

أساليب مختلفة للإقناع

يملك الآباء أن يجبروا أبناءهم على تنفيذ المهام التي يريدون، ولكن هل يدركون كم يكون الفرق عظيماً لو أقنعوا أبناءهم بالقيام بالأمر المطلوب بدل إكراههم عليه بالقوة والسلطان؟ جربوا مثل هذا الأسلوب وقارنوا النتائج لتلمسوا الفرق بأنفسكم.

أشرت -في الحلقة السابقة- إلى أن جدي قد استأجر ذات صيف دارة في إحدى ضواحي عمّان كانت ملتقى لكل عائلته: بناته وأزواجهن وأولادهن وبناتهن خلال تلك الإجازة الصيفية. تلك كانت الإجازةَ الأولى التي تجتمع فيه عائلة جدي كلها في بيت واحد؛ فقد كنا اعتدنا -قبل ذلك- أن نلتقيه كل صيف في دمشق، نحن في بيتنا وهو في بيته، نزوره كل يوم أو يزورنا، لكن لقاء هذا العام كان في بيت واحد يضم الجميع، فكانت سعادة وبهجة لنا أن ننعم بقرب جدنا وخالاتنا، ولم نكن نشكو إلا من كثرة الأعمال المنزلية التي توكل إلينا

على مدار اليوم فترهقنا وتتعبنا، وتفسد علينا شعورنا بمتعة العطلة وحلاوة الكسل، تفاجؤنا ونحن غارقون في قراءة كتاب أو مجلة فتذهب بتسلسل أفكارنا، أو نُنادَى إليها ونحن نلهو في الحقول المجاورة فننزعج لانقطاع الألعاب التي نقوم بها. هذا بالإضافة –أصلاً– إلى كرهنا التام لهذه الأعمال.

وكثرت شكوانا وطال تذمرنا ...

فأرسل جدي بطلبِ واحدٍ منا وكلفه أن يطوف في أرجاء المنزل منادياً في طلبنا داعياً إيانا إلى اجتماع خاص في غرفته لا يجوز لأحد غير الأحفاد أن يحضره... أثار هذا النداء فضولنا، ترى ماذا يريد منا جدي؟ كما أثار حماسنا، فما هذا الأمر الذي سنستأثر به دون الكبار؟ فاندفعنا نحو غرفته مسرورين، شاعرين بأهميتنا، وقد تهيأنا لسماع وتقبّل كل ما سيُقال لنا. أغلقنا الباب وجلسنا، فقال بهدوء: لقد جمعتكم بناء على شكواكم وتذمركم من الأعمال المنزلية، فتعالوا نناقش سويةً هذا الموضوع بعقل ومنطق:

إنكم –أولاً– تقضون النهار كله باللعب والركض في الحقول فلا تشعرون بالتعب، ثم ترهقكم بعض الأعمال المنزلية التي لا تكاد تستغرق ساعة أو ساعتين. أهذا معقول؟

ثم وضح لنا –ثانياً– أن العمل، مهما كان نوعه، يبقى نوعاً من أنواع الرياضة، وهذه الرياضة مفيدة من وجهين فهي تحرك عضلات

الجسم، وتخفف العبء عن أمهاتنا فننال رضاهن و يرضى عنا الله بمساعدتنا لهن.

ثالثاً: هل من اللائق أن نساهم في الإفساد ثم لا نساهم في الإصلاح؟ فما دمنا نأكل ونشرب وننام ونلعب فَمَنْ نتوقع أن يُعِدَّ طعامنا وينظف أطباقنا ويرتب أسّرتنا ويكوي ملابسنا، وماذا سيصبح حال الدار لو تقاعس الكل عن العمل؟ إذن، لابد أن يكون لنا في كل ذلك نصيب، ومن الظلم أن تقوم أمهاتنا بكل هذه الأعباء دون مساعدتنا.

رابعاً: إن أمهاتنا -مثلنا- يستثقلن هذه الأعمال ولا يستمتعن بالقيام بها، لكنهن يدركن أنه الواجب الذي ينبغي القيام به، والعاقل لا يفّر من واجبه، وتلك هي طبيعة الحياة. فما دمن أقبلن على العمل مضّحيات براحتهن فعلينا -نحن أيضاً- أن نساهم في هذا الواجب.

وأخيراً: فإن العمل جزء من الحياة ذاتها، ونحن قد اعتدناه وقبلناه برضى طيلة أيام المدرسة المزدحمة بكثير من الواجبات والامتحانات (على ما كان يشدّنا وقتها إلى اللعب والراحة تنفيساً عن جِدّ الدراسة وثقل واجباتها) فكيف يصعب علينا العمل الآن ونحن حِلٌّ من كل مسؤولية وبإمكاننا المساعدة في أي وقت؟

* * *

أتدرون ماذا كانت نتيجة ذلك "المؤتمر" ؟

لقد خرجنا من غرفة جدي بغير النفسية التي دخلنا بها. كنا كارهين للعمل فصرنا به راضين، وكنا مستثقلينه فصرنا له متقبلين، وكان مفتاحُ هذا الحل الأسلوبَ السحري الذي استخدمه جدي: أشعرنا بأهميتنا وخاطبنا بخطاب الكبار (وكل صغير لا يزال يتمنى أن يكون كبيراً ويُعامَل معاملة الكبار) وحملنا على الاقتناع بما نُكلَّف بأدائه بدلاً من إكراهنا عليه (والاقتناع بالعمل يجعل الصعب سهلاً و العسير يسيراً).

بقيت مشكلة واحدة: كيف نقسم أعمال البيت -وهي كثيرة متنوعة- بيننا؟

تلك هي المشكلة التي عالجها جدي بأسلوبه المتميز كما سنرى في الحلقة القادمة.

* * *

العدل والحسم

صفتان ضروريتان للمربي الناجح

العدل في المعاملة

التفرقة بين الأولاد أكبر خطأ يرتكبه الآباء بحقهم، وهو عمل يؤدي إلى التباغض وتبادل مشاعر الكراهية بين الإخوة فاحذروه. لا تُشعروا أياً من أبنائكم أنه مفضَّل على الباقين أو أنه مفضول، وكونوا مقسطين في العقاب والثواب وفي توزيع الأعمال والمحاسبة على أدائها.

في الحلقة الماضية تحدثت عن الأسلوب الذي أقنَعنا به جدي بضرورة المشاركة في أعمال البيت بحيث أقبلنا عليها راغبين مقتنعين. ولكن بقيت مشكلة أخرى عانينا منها وهي شعورنا بعدم العدل؛ فكل واحد منا يظن نفسه مظلوماً مضطهداً لأنه يعمل في المنزل أكثر من غيره، بل وتوكل إليه -فيما يظن- المهام الصعبة والأعمال المتعِبة التي تأخذ جهداً ووقتاً كبيرين بينما تُسنَد إلى الآخرين الأعمال السهلة الخفيفة التي لا تكاد تستغرق أي قدر من الوقت أو الجهد.

حملنا هذه الشكوى إلى جدنا (قاضي الصيف..) ليقضي فيها كما فعل في سواها من قبل، فعرضنا عليه المسألة، وتناقشنا أمامه وتجادلنا كلٌّ يحاول إقناعه بأن العبء الأكبر من العمل من نصيبه وحدَه، وهو منصتٌ يستمع لنا رغم ما لمس لدينا من توهم ومبالغة. حتى إذا انتهينا، أعلن أنه سيحل المشكلة بحيث تكون الواجبات موزعة بالعدل فلا يزيد نصيبُ واحد عن سواه ولا يستأثر أيٌّ منا بالأعمال السهلة أو المسلية تاركاً لغيره المملَّ منها أو العسير. أمسك ورقة فكتب عليها الأعمال المنزلية المطلوب منا إنجازها كل يوم، ثم بدأ يعرضها علينا لينتقي كل حفيد العمل الذي يفضله، مجنّباً كل واحد منا ما يكره من الأعمال، مراعياً أعمارنا وقدراتنا –وإن كنا متقاربين جداً في ذلك–مسنداً للأكبر أعمالاً أكثر أو أصعب وللأصغر أقّل أو أيسر.

وبعد أن تأكد جدي أن الأعمال قد وزعت علينا بالتساوي، ودون ظلم أو محاباة، سطر جدولاً مرتباً منظماً، كتب على يمينه أسماءنا بخط الثلث الجميل الرائع (وجدي خطاط متقن –كما ذكرت من قبل– يخط بالنسخ والديواني وغيرها من الخطوط، ولكن أحبها إليه وأتقنه لها من الخطوط الثلث) وعلى يساره الأعمال التي اخترناها. ثم أطلعنا على الجدول ليتأكد من موافقتنا على ما ورد فيه، فقبلنا، ووقّع كل واحد منا أمام اسمه. عندئذ حمل جدي هذا البرنامج اليومي إلى الصالة التي نمر منها طوال اليوم وعلقه هناك على الحائط، فصرنا نبدأ نهارنا بهذه الأعمال التي رضيناها لأنفسنا واقتنعنا بأدائها وأيقنّا أنها لا بد منها،

فنقوم بها بسرعة وإتقان وعن طيب نفس، ثم يقضي كل منا نهاره كما يحلو له.

* * *

إن الإحساس بالإنصاف واحد من أهم حاجات الإنسان في الحياة، يستوي في ذلك الكبار والصغار. ولقد أراحنا جدي عندما أشعرنا بالعدل والمساواة. وذلك كان طبعاً دائماً فيه: لا يفاضل في المعاملة بين أحفاده، ولا يحابي منهم أحداً على أحد. يهتم بالجميع، ويوحي لكل واحد منا أنه قريب جداً إليه وذو حظوة خاصة عنده، فلم يشعر أحدٌ أن غيره مفضَّل عليه، ولم أحسّ أنا يوماً أنه يفضل واحداً عن الآخر. حتى إذا كبرت علمت أن بعض الأحفاد كان عنده أحظى من بعض فكانت مفاجأة لي، ليس لأنه أحب واحداً أكثر من سواه فذلك قسمه فيما لا يملك (وبعض الصغار يملك من الصفات أو الشكل أو خفة الروح ما يجعله محبوباً بين الكبار أكثر من سواه) ولكن لأن أياً من أحفاده لم يحسّ بذلك يوماً: لا بالعطاء المادي ولا المعنوي ولا بالمعاملة أو إظهار المحبة والعاطفة.

فيا أيها الآباء والأمهات والأجداد والجدات: اصنعوا مثل ذلك تبذُروا بذور الحب والخير بين الصغار، وتذكّروا: إن من حقكم أن تحبوا بعضهم أكثر من بعض، ولكن من حقهم أن تبقى مشاعركم حبيسة قلوبكم فلا يحسوا بأي مفاضلة أو تفرقة.

* * *

العدل في العطاء

أيحبّ أبٌ أو أمٌّ أن يبغض أولادهما الواحد الآخر؟ ذلك أمر تصنعه المفاضلة بين الأولاد، ويدرؤه العدل بينهم في كل شيء، وأول ذلك:العطاءُ المادي بالمال والهدايا وسائر أنواع الهبات والأعطيات.

في حلقة سابقة حدثتكم عن العدل المعنوي الذي كان جدي حريصاً عليه، فلم يحسَّ أحد من أحفاده أنه مفضَّل لديه ولم يحسَّ أحد أنه مفضول، وبهذا العدل حقق جدي أمرين، أولهما: أحبه أحفاده جميعاً وتعلقوا به ووثقوا بعدله وحبه فقبلوا توجيهه وتربيته. والثاني: حال هذا العدل دون تولّد أية حزازات أو أحقاد بين الصغار مما يولّده – عادةً – التمييز والتفريق في المعاملة.

ولكن للعدل وجهاً آخر لا يتّم بدونه ولا يتحقق لو غاب، وذلكم هو العدل المادي: في العطايا والهبات وفي سائر أنواع التقدمات والأعطيات. وكما أتقن جدي النوع الأول من العدل فقد أتقن النوع

الثاني وأجاد، فلم يفرق -يوماً- في عطاء من أي نوع بين قرين وقرينه من الأحفاد. لا أتذكّر -في هذا الشأن- موقفاً واحداً وإنما مواقف كثيرة بالعشرات، أذكر لكم بعضاً منها:

فإن أعطاني مبلغاً من المال (وكان كثير العطاء، يحتفظ في درجٍ له بأوراق نقدية جديدة يُؤتى له بها من المصرف فيوزع منها على الصغار كل حين وحين)، أعطى جميع الأحفاد مثله، أو -على الأقل- أعطى أختّي الاثنتين مثل الذي أعطاني، فإن كانتا غائبتين طلب مني الاحتفاظ بنصيبهما ريثما تعودان.

وكان يصطحبنا -بنفسه- إلى البقال المجاور لبيته في مكة، فيوزع علينا مبلغاً من المال بالتساوي ثم يترك لكل واحدة منا الخيار لتنتقي ما تريده بنفسها.

وطلبتْ منه أختي -ذات يوم- أن يكتب لها كلمات قصيرة في دفترها الخاص (الأوتوغراف)، فكتب لها بصيغة الجمع على أساس أن تكون هذه الكلمات لنا نحن الأخوات الثلاث جميعاً، لكني اعترضت وأحضرت دفتري وأريت جدي ملاحظات صديقاتي ومعلماتي عليه، ثم رجوته أن يكتب لي شيئا خاصاً بي، ورأيت منه كرهاً للكتابة (إذ كانت لديه أمور تشغله) لكنه كتب لي حتى يعدل بيني وبين أختي فلا أشعر بأنه فرق بيننا في المعاملة أو فضلها علّي.

وكان يرسل إلّي وإلى أختّي رسائل من مكة إلى مدرستنا في دمشق فيخص كل واحدة منا برسالة منفصلة في مظروف خاص عليه

اسمها، وكم كان استلام هذه الرسائل يفرحنا ويشعرنا بالأهمية بين صديقاتنا وسائر الطالبات؛ إذ ننفرد -دونهن- بهذه الميزة الكبيرة: استلام رسائل خاصة من خارج البلاد!

وعندما كنت في الثانية عشرة من عمري أردت استبدال ساعة جديدة تعمل بالبطارية ولها خانة للتاريخ بساعتي القديمة ذات العقارب والتي تحتاج أنيُعاد ملؤها بتدوير زرٍّ صغير في طرفها أو تتوقف عقاربها عن الحركة، بيد أن والدي رفض شراء ساعة جديدة لي لأني -كما قال- ما زلت صغيرة. لكن عندما حضر جدي في الصيف وعلم برغبتي تلك (ولا أدري من أخبره) ، صمّم على إهدائي تلك الساعة وطلب من والدتي أن تأخذني وأختّي فوراً إلى السوق وتشتري لكل واحدة منا الساعة التي تختارها بالمواصفات التي تريدها، هذا مع أن أختّي لم تطلبا شيئاً ولم تعترضا على شراء ساعة لي وحدي، بل إن أختي الصغركانت في الثامنة من عمرها ولما تتعلم كيف تعمل الساعة أو كيف تقرأ الوقت.

* * *

هذه الوصفة التربوية الناجحة أفادتني كثيراً في مستقبل حياتي وأعانتني -لما صرت أمّاً- في تنظيم العلاقة بين طفلّي الصغيرين، فكلما ناولت ابني الكبير شيئاً (أيَّ شيء، سواء كان طعاماً أو شراباً أو لباساً أو لعبة أو غير ذلك) وقَفَ الصغير ذو العامين بكل أدب منتظراً دوره أو حصته دون اعتراض أو مزاحمة، وكلما حملت الأول أو لعبت معه

انتظر الآخر دوره مهما تأخر، فقد تعود أن أبدأ بالأكبر ثم أنتقل إليه مساوية بينهما، حتى صار الصغير لا يأكل حتى يُطعِم أخاه ولا يشرب الحليب حتى يطمئن أن أخاه قد فعل، واختفت بينهما كل مشاعر الغيرة والتنافر، وحلّت -بدلاً منها- علاقة طريفة فيها الكثير من المرح والمحبة والوئام.

* * *

علاجٌ حاسم وصريح

في بعض الأحيان يتوجب على المربي التدخل بحسم وحزم لإنصافِ مظلومٍ من ظالم أو ردّ عدوانِ قويٍ على ضعيف أو إعادةِ حقٍ إلى نصابه. إن ترددنا عن التصرفٍ الحاسم والسريع -في مثل هذه الحالات- قد يؤدي إلى آثار سلبية يصعب علاجها بعد ذلك.

كانت الشام -التي نشأنا فيها صغاراً- تفتقر إلى أكثر المنتجات والبضائع الجديدة الجميلة التي يعرفها الناس هذه الأيام. وكان أهلنا يسافرون إلى بيروت -بين حين وآخر- ليوم أو أيام معدودات لقضاء بعض الواجبات ونبقى، نحن الصغار، في بيت جدنا. وكان في بيروت في تلك الأيام من الأشياء الجميلة النادرة (فيما كان يبدو لنا) الكثير، فكان الكبار من أهلنا إذا سافروا إليها جاؤونا بما يفرحنا من هذه الأشياء.

وعاد أهلنا ذات يوم من واحدة من هذه الرحلات ومعهم علب من الورق المقوى مصممة كلٌّ منها على شكل شنطة جميلة المظهر، جذابة الألوان، تحتوي قطعاً صغيرة كثيرة من الحلوى اللذيذة التي يحبها الأطفال. وكان بعض أقاربنا قد جاؤوا -يومها- لزيارتنا ومعهم أبناؤهم الصغار، فوزع أهلنا هذه الهدايا علينا وعلى الصغار الذين كانوا موجودين، فأخذ كل واحد علبة خاصة به.

وكنا نتلقى -على الدوام- توجيهات من أهلنا تحثنا على أن نكون كرماء مؤثِرين، فلما أعطونا تلك الهدايا حمل كل حفيد منا علبته وراح يدور بها على أقاربنا الكبار الذين حضروا لزيارتنا يدعوهم لتذوق ما فيها من الحلوى، فسر أولادهم بذلك واحتفظوا بعلبهم التي قُدِّمت لهم مغلقةً (مؤجّلين أكلها لحين اختلائهم بأنفسهم حتى يستأثروا بها كلها) ومدّوا أيديهم فأخذوا قطعاً من الحلوى من علبنا التي كنا نطوف بها على آبائهم من الكبار، فما وجدوا منهم تنبيهاً ولا ممانعة. وقد أزعجنا ذلك التصرف وأربكنا فلم ندرِ ما نفعل أو كيف نتصرف، فلا نحن رضينا أن يأخذوا من علبنا وعلبُهم ممتلئة مخبأة، ولا نحن تجرأنا على الاعتراض والانتقاد في حضرة الكبار، فسكتنا راغمين يملؤنا الغيظ مما بدا لنا من شراهة وطمع الصغار ولامبالاة وعدم ملاحظة الكبار.

جدي كان جلساً في الغرفة ذاتها -بطبيعة الحال- يرحب بالحاضرين مهتّماً بهم متحدثاً إليهم، ولكن شيئاً مما وقع لم يفُته لدقة ملاحظته وسرعة إدراكه، فانتبه إلى استغلال الأطفال لكرمنا، وأخذهم لحلوانا وعلبهم مغلقة لا يطعمون أحداً منها، فلم يتعجب من تصرفاتهم

(فالأطفال كلهم تقريباً يتصرفون بهذا الشكل وعلى هذه الطريقة)، ولكنه تعجب من أهلهم الذين جلسوا يراقبون صامتين، لا يوجهون ولا يعترضون.

فهل تصدقون ماذا فعل جدي يومها؟

لقد جمع الحلوى من جديد من أيدي الأولاد وجيوبهم وأعادها إلينا كاملة، وقال لآبائهم -بكل صراحة ووضوح- إنه فعل ذلك ليعلّم أولادهم بموعظة جلية وتوجيه مباشر أن ما صنعوه بخل واضح، وطمع زائد، وأثرة لا يرضى عنها الله‌ثم نبّه هؤلاء الآباء إلى أن التربية ترسيخ لمبادئ، وتقويم لسلوك. وهو لم يهجُ أولادهم بل قال إن تصرفاً كهذا مألوف من الأطفال لذلك وجب على الآباء أن ينبهوا ويقّوموا، فإحجام الأب عن توجيه وتنبيه ابنه إلى ترك الشراهة والابتعاد عن الطمع في مثل هذا الموقف يجعل السلوك العفوي طبعاً أصلياً يصعب التخلص منه مستقبلاً.

* * *

أيها الإخوة والأخوات: قد تعجبون من هذه القصة وتنتقدون هذا التصرف من جدي، فأنا مثلكم -رغم سروري وقتها بعودة الحلوى إلّي- عجبت منه ووجدته غير لائق، لكن أقاربنا تقبلوه ولم يجدوا فيه غضاضة؛ فجدّي مربٍّ للجميع، وهو قد نبههم إلى لمسة مهمة لم تخطر ببالهم. وكثير من المربين يحتاجون لمن ينبههم إلى أخطائهم ويوجههم ويساعدهم في تربية أولادهم.

لقد تعلمت أن أسلوب الوعظ المباشر مفيد في بعض الأحيان فبعض الناس لا يدركون أنهم هم المعنيون عندما نستعمل معهم أسلوباً مبطناً لطيفاً، وأيقنت أن الخطأ الجلي الواضح الذي يتم أمام الجميع يحتاج إلى عتاب وتوجيه وتصحيح أمام الجميع.

* * *

تكوين الشخصيّة

القويّة والناجحة

تنمية الشخصيّة

طوروا استعدادات أبنائكم وكلفوهم بما ينمي شخصياتهم من أعمال. سيحتاج هذا الأمر منكم إلى صبر واحتمال لأن الصغار لن يتقنوا كل شيء من المرة الأولى، ولكن لا تؤنبوا أحداً على اجتهاد وجدتموه خاطئاً بل علّموه ودربوه.

لقد تعلمنا -منذ الصغر- أن نتقبل العمل ونُقبِل عليه معتبرينه جزءاً من حياتنا اليومية، وأن نُكلَّف بكثير من واجبات البيت أسوةً بالكبار ومساعدةً لهم. كانت أمهاتنا يكلفننا -دائماً- بالعمل، فتدّربْنا وتعلّمنا أن نقوم بالأعمال بطريقة صحيحة، وذلك كان خيراً لنا في مستقبل حياتنا.

ولكن جدي كان من نوعٍ مختلف: كان -أولاً- يكلفنا بالعمل الذي ينمي شخصياتنا ويقويها ويصقلها حين يكلفنا بأشياء أكبر من مستوى أعمارنا وفوق ما هو متوقَّع من قدراتنا. وكان -ثانياً- يضفي

على تكليفه جّواً من المرح يستحيل معه العمل الصعب سهلاً والعسير يسيراً وتصبح المهمةُ المتعبِة وظيفةً ممتعة.

كنت صغيرة جداً عندما ناداني جدي وطلب مني أن أصنع له قهوة، وعندما قلت له إني لا أعرف، هّون الأمر علّي وقال: "إنها مهمة سهلة جداً تتألف من عدة خطوات". ثم أمسك يدي وبدأ يعدد على أصابعي: "أولاً: أحضري دلة القهوة. ثانياً: ضعي فيها ملعقةَ بن. ثالثاً: ملعقةَ سكّر. رابعاً: قدْر فنجان من الماء، رابعاً: ضعيها فوق النار. خامساً: دعيها تغلي، وتغلي، وتغلي..." وراح يكرر هذه الكلمة عدة مرات، ثم قال: "حتى تغلي ستاً وسبعين فورةً". وذهبت أصنع ما طلب مني، وكدت أبدأ -فعلاً- بعدّ الفورات لولا أن نبهتني أمي إلى أنه يمازحني وأن القهوة لو غلت كثيراً لاختّل طعمها. ذلك مثال واحد من أعمال البيت، ومثله كثير، حتى لكان -أحياناً- يكلفنا بالطبخ غيرَ عابئ باحتجاجات الكبيرات من أمهاتنا ورفضهن، إذ يكلفهن إصلاح ما نفسده بعملنا من الجهد أضعاف ما يحتجن لبذله إذا طبخن بأنفسهن.

وكان يدفع أحفاده الصغار للإمامة في الصلاة وهم حديثو عهد بالبلوغ، فيقدم حفيده ليكون إماماً ويصلي هو خلفه، على قلة مؤونة الفتى من الحفظ والتجويد، فيخطئ الفتى ويتلعثم رهباً وخجلاً (وذلك طبيعي لمن لم يصلِّ إماماً من قبل قط) فلا يلومه ولا يقلل من شأنه، بل هو يشجعه فيقدمه إلى الصلاة -من بعد- مرة بعد مرة حتى يشبّ وقد اعتاد الإمامة وأتقنها.

ومن أعماله التي كان ينمي بها شخصية أحفاده أنه كان يعهد إلى بعضهم بشراء بعض ما يلزم البيت وهم صغار، فكان يدفع إلى عدد منهم (ولما يتم الواحد منهم الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة) مبلغاً من المال ويوصيهم بالذهاب إلى السوق لشراء "أشياء ظريفة" تفرح الصغار. كان يترك لهم الخيار بالانتقاء فلا يحدد لهم ما يشترون، ثم يشكرهم على تنفيذ المهمة ويشجعهم ولو أخطؤوا بأمر أو اشتروا شيئاً بأغلى مما يشتريه أصحاب الخبرة من الكبار. كان المبلغ الذي يدفعه إلى أحفاده أولئك أكبر بكثير مما اعتاد أمثالهم حمله أو التصرف به؛ فكانوا يشعرون -إذ يذهبون إلى السوق فيشترون وهم أصحاب المسؤولية وأصحاب القرار- أنهم قد كبروا في يوم واحد سنوات عديدات.

ثم كان يتم هذا الصنيع بالتشجيع، ولو أنه لاَم على اجتهاد خاطئ أو قرار غير صائب لضاع النفع في هذه التجربة، فما كان ليلوم وهو الخبير بالتربية الذي يعلم أن من تمام التفويض أن نقبل صواب المفوَّض وخطأه.

فأين هذا المفهوم من الأب الذي يكلف ولده -مثلاً- بشراء صحيفة من الدكان فإن اشترى سواها -ساهياً أو ناسياً- عنّفه وعاقبه أو الأم التي تكلف ابنتها بجلي الصحون فإن كسرت -غير عامدة- واحداً منها لامتها ووبختها؟

يا ليت الآباء والأمهات يدركون أهمية تنمية شخصيات الصغار وأهمية التجاوز عما يقعون فيه من خطأ أو تقصير يتناسب وأعمارهم وحظهم من التجربة في الحياة، إذن لوفروا على أنفسهم وأولادهم قدراً عظيماً من المعاناة والضيق ولاختصروا الطريق إلى تكوين أولاد راشدين ناجحين.

* * *

الجرأة في الحق

علموا أولادكم القيام بحقوق الله كاملة، وفي وقتها، مهما كانت الظروف. وعلموهم أن أحداً غير الله لا يملك النفع والضر فليكن خوفهم من الله لا من أحد سواه.

عندما انتقلت إلى المرحلة الإعدادية (في بلدي الذي كنت أعيش وأدرس فيه) كانت ساعات الدوام تبدأ بعد أذان الظهر بقليل، وتنتهي قبيل المغرب بدقائق، إلا أني -مع ذلك- لم أجد في شعبتي طالبة واحدة تصلي في المدرسة أياً من فروض النهار. وكنت كلما صليت ضحكتْ مني التلميذات وسخرن من اهتمامي الشديد بالصلاة، ونصحنني -لجهلهن- أن أجمعها مع صلاة المغرب. ثم مُنعت رسمياً من الصلاة داخل غرفة الدرس.

فشكوت لوالدتي ما لقيت، وسألتها: هل يجوز أن أجمع الظهر مع العصر كل يوم؟ فأفتتني أنه لا يجوز، ثم شجعتني على الصلاة في المدرسة بإصرار واستمرار وكل يوم... مستهدية بإرشادات جدي

(الذي كان مسافراً) حيث علمها وأخواتها الجرأة في الحق، وأن لا تخاف في الله لومة لائم، فعلّي -أنا أيضاً- أن لا أخجل من أحد ما دمت أعمل لرضاء الله. وقصّت علّي بعض المواقف التي تعرض لها جدي وكيف خرج منها منتصراً لأنه طلب رضا الله وعمل لذلك، ثم ذكرتني بأن من اشترى رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس. وأشارت علّي بأن أحمل معي بساطاً خفيف الوزن، صغير الحجم، ثم أصلي فوقه أمام الجميع في الساحة المخصصة للاستراحة. فاقتنعت، وقررت التمسك بالصلاة وعدم الالتفات إلى سخرية الطالبات.

بعد مدة قصيرة تحولت بعض نظرات الاستغراب والاستهزاء إلى نظرات احترام، مما أشعرني بالقوة والفخر والسعادة: "ومن اشترى رضاء الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس". وشجع ذلك طالبات صالحات من شعب أخرى على الصلاة في المدرسة، فصرنا نتناوب على الصلاة الواحدةُ تلو الأخرى، لعدم اتساع البساط .

* * *

إني أعتبر "الجرأة" من أعظم ما تعلمته من جدي لأنها تدفع الظلم وتحفظ الحق، ولو تحلى المسلمون بهذه الصفة لتخلصوا من كثير مما يعانون منه. وإني لأعجب كيف استطاع جدي زرع هذه الصفة في شخصية أمي وأخواتها، ثم كيف استطاعت أمي -في غياب جدي- نقلها لي بكل وضوح! لكني أعلم أن الذي يفقد الجرأة في مواطن الحق

يضيع الحق، وهو لن يضيع –عند ذلك– حقه فقط بل حقوق الآخرين كذلك.

تلك كانت الروح التي حرصت على نقلها إلى أولادي بعدما أدركت من أهميتها ما أدركت، وذلك هو الفهم الذي اهتممت أن أوصله إليهم. حتى إن ابني الصغير قد اختصم يوماً مع أحد الطلاب في المدرسة حين اعتدى على نظام الوقوف في الصف أمام مقصف المدرسة وحاول التسلل بين الأولاد الواقفين، فلم يمكّنه من ذلك واعتبر السكوت تخاذلاً في موقفٍ يستدعي منع الظلم ورد الاعتداء على المجموع.

* * *

إن الذي يعمل ما يعمل لله يصيبه توفيق الله. وها أنا قد تحديت إدارة المدرسة وأصررت على الصلاة حين ُمنعت من الصلاة، فما لبثْت هذه الإدارة أن تراجعت عن المنع وُمنحتُ موافقة استثنائية خاصة تسمح لي بالصلاة حين أريد حيث أشاء.فهل ترون الله مضيعاً أحداً غضب لله وعمل لله وأظهر الجرأة –في موقف يستدعي الجرأة– لله؟

* * *

العناية بالصّحة والقوة

اهتموا بصحة أبنائكم وقوة أجسامهم، وعلموهم كيف يدافعون عن أنفسهم إذا اضطروا للدفاع عن أنفسهم، ولكن تأكدوا أن يكون استعمال ما لديهم من قوة ومهارة للدفاع وردّ الأذى لا للعدوان على الآخرين.

لم يحدث هذا مرة واحدة بل كان يتكرر كل يوم في طريق العودة من المدرسة الابتدائية إلى البيت: تحّض بنت الجيران أخاها الصغير فيرمي التلميذة الصغيرة بالحجارة قاصداً إيذاءها ثم يكمل اعتداءه بمجموعة مختارة من السباب والشتائم. قابلت التلميذة هذا التصرف في أول الأمر بالتجاهل والتسامح، وحذرت البنت وأخاها من عواقب هذا التصرف المرةَ تلو المرة دون أن تجد تجاوباً أو تشعر باهتمام؛ فقد حسبت تلك البنت تصرفَ التلميذة ضعفاً وسكوتَها جبناً فسرّها ذلك وأسعدها، بل هي زادت من وقاحتها وتطاولت بالكلام. عندها قررت التلميذة الصغيرة أن تدافع عن نفسها بنفس الأسلوب فتردّ على

القوة بالقوة فوقفت بكل كبرياء جامعةً قبضة يدها كما كان يعلمها أبوها دائماً وضربت تلك المعتدية لكمة قوية في بطنها انثنت على إثرها متألمةً ألماً شديداً، بينما عادت التلميذة إلى البيت منتصرةً لنفسها رافعةً رأسها، وكانت تلك هي المرةَ الأخيرة التي يتعرض فيها لها هذا الولد أو أخته بأذى أو بسوء.

تلك التلميذة الصغيرة كانت والدتي، أما أبوها الذي علمها كيف تدافع عن نفسها وسّر منها وامتدحها في ذلك اليوم فهو جدي: علي الطنطاوي، الذي كانت تلك واحدةً من لمساته التربوية المتميزة: التسامح مع الضعيف واستعمال القوة حين لا تنفع إلا القوة.

* * *

كثيراً ما نحتاج إلى الدفاع عن أنفسنا أمام أولئك الذين لا يفّرقون بين التسامح والضعف، وبين الإمهال والتقاعس، لذلك عكف جدي على تعليم بناته كيف يدافعن عن أنفسهن (إن احتجن لذلك). وكان يعلمهن الطريقة الصحيحة في قبض اليد والمكان الذي يجب أن ترتكز عليه الضربة، وإلا آذى المرء نفسه قبل أن يؤذي خصمه. وكان هو نفسه يتمرن ويمارس الرياضة دائماً، وقد اقتنى بعض أدوات التدريب التي كانت شائعة في تلك الأيام، كما ركّب في بيته بالشام حاملاً معدنياً لممارسة تمارين الشد والضغط وعلّق عليه كيس التدّرب على الملاكمة. وكان يمشي مشية رياضية مشدود الظهر منتصب القامة

ويعلّمنا ذلك حتى لا تتأذى فقراتنا الظهرية إن أهملنا التعامل الصحيح معها.

* * *

وكان يعتني بالغذاء الجيد ويوصينا بذلك لأنه السبب الرئيس في تلك القوة؛ فاللحم والبيض والحليب من المواد الأساسية التي يجب علينا تناولها كل يوم. وكانت هذه النظرية من المآسي التي عانت منها أمي وخالاتي في بيت جدي: شرب البيض نيئاً صباح كل يوم، وتناول أشربة الفيتامينات وزيت كبد الحوت ذي الطعم الكريه والرائحة البشعة، كل ذلك محافظة منه على صحة بناته.

وكان النوم الجيد –عنده– من أهم أسباب المحافظة على الصحة الجيدة؛ فكان يرغم الواحدة من بناته على النوم ثماني ساعات كل يوم، فلو نقصت ساعات نومها عن القسط المحدد أرغمها على إكماله ولو أدى ذلك إلى تأخيرها عن الذهاب إلى المدرسة أو صرفها عن القيام بواجباتها المدرسية أو البيتية. بل إن هذا الحال قد استمّر حتى بعدما صارت بناته أمهات وقاربن أن يصرن جدات: يحمل الواحدة منهن على الذهاب إلى النوم إن أحسّ لديها تعباً أو لمس عندها إرهاقاً، غير عابئ باعتراضها وممانعتها ولو كانت تزوره في بيته، حتى لربما صرفت في النوم جلّ وقت زيارتها.

* * *

كانت الصحة وقوة الجسم من اهتمامات جدي الدائمة، جمع حرصه عليهما إلى حرصه على تربية العقيدة السليمة والخلق القويم والعقل المتفتح، فكان المربي الذي يحرص على التربية الشاملة المتكاملة التي لا يتضخم فيها جانب على حساب بقية الجوانب.

* * *

تنمية المهارات

اهتموا بميول أولادكم، ونموا مواهبهم، وتلمسوا لديهم مواطن الإبداع فزيدوه وطوروه، واستغلوا لهذا الغرض كل مناسبة وكل فرصة؛ فالشخصية الناجحة المبدعة تأتي نتيجةً لتراكمٍ من جزئيات النجاح والإبداع.

كان جدي كثيراً ما يستغّل جلساتنا العائلية العادية فيحّولها إلى جلسات علمية هادفة (وهو أمر سأتحدث عنه في إحدى الحلقات القادمة)، وكان يستشهد فيها أحياناً بالأشعار ليخدم معنى أو يرسخ حكمة، فيلقي علينا من ذاكرته بيتاً أو بيتين من الشعر. وكان الغالب أن ينصرف بعد ذلك إلى موضوع آخر أو ينسجم في قصة أخرى فننسى ذلك البيت من الشعر أو تلك الأبيات، لكنه، وفي بعض الأحيان، كان يلتفت فجأة نحو واحد من أحفاده فيطلب منه أن يلقي البيت مرة أخرى ليختبر مقدار انتباهنا لما يقوله، وسرعة حفظنا لما نسمعه. في البداية كنا نجد صعوبة في إعادة إلقاء الشعر كاملاً دون

نقص فنرتبك أو ننسى بعض الكلمات، لكننا (وقد عرفنا تلك الطريقة في الاختبار) صرنا نعطي جدي -إذا تكلم- كل انتباهنا، وعودنا أنفسنا على حفظ الأشعار فور سماعها استعداداً لمفاجأة منه، وكل واحد منا يتربص حذراً لعله يكون المطاَلب بالإلقاء، فزادت حصيلتنا الشعرية وتحسنت لغتنا، وقويت ذاكرتنا فصرنا نستمع جيداً لكل ما يقال ونحرص على حفظه.

* * *

وأذكر أننا فكرنا مرة بكتابة الشعر (وكان شيئاً مضحكاً، فقد كنا في المرحلة الابتدائية لا نعرف شيئاً عن علم العروض، ولا نفقه شيئاً في الأوزان الشعرية)، فكتبنا بعض "الأبيات" في وصف الطبيعة وجمال الحديقة (بلا وزن ولا قافية!)، ثم عرضناها على جدي بكل فخر! والعجيب أنه لم يسخر منا بل شجعنا وخاطبنا على قدر عقولنا، ومنحنا جزءاً من وقته الثمين شرح لنا فيه بطريقة لطيفة أن الشعر يقوم على الوزن والقافية، وأعطانا فكرة مبسطة جداً عن علم العروض.

وعندما لاحظ لدى أحد أحفاده نبوغاً مبكراً، وميلاً أدبياً، وأسلوباً راقياً، أرشده إلى الكتب القيمة المفيدة، وشجعه على الكتابة والتأليف، وصار يصحح له كل ما يكتبه، ويرشده إلى الطريقة السليمة في الكتابة.

وعندما لمس مني اهتماماً بالتجويد صار يناديني -من حين لآخر- إلى غرفته فأقرأ ويصحح لي، مما شجع بعض الأحفاد على

الانضمام إلينا. عندها لاحظ جدي أن بعضنا لا يستطيع إعطاء المدود حقها بسبب انقطاع سريع في النفس، فصار يدربنا على الاحتفاظ الطويل بالنفس، وصار يجري في ذلك مسابقات فيضبط ساعته، ثم يحصي لكل واحد منا مقدار الثواني التي استطاع فيها ذلك، ويشجع الحفيد الذي تحسن أداؤه عن اليوم السابق، ويقارن بين الأحفاد ليحثنا على التحسن.

* * *

كان دأب جدي أن ينمي كل مهارة، وأن يتلمس (بقدرته الفذة على الاستشعار) مواطن الإبداع الكامن لدى كل منا لصقله وتطويره (ومن ذا من الناس يخلو من أي قدر من الإبداع؟) وكان يشجع أي عمل إيجابي -مهما كان بسيطاً- فيحاور صاحبه موضحاً له قيمة عمله، وحاثاً إياه على تقديم الأفضل دائماً، ويشجعه على الاستمرار فيه مغدقاً عليه كل الثناء والتقدير.

* * *

الفرصة ذبابة

فرص النجاح في الحياة لا تتكرر كثيراً، والناجحون هم الذين يفلحون في اقتناص الفرصة الجيدة في الوقت المناسب. إذا كنتم حريصين على إضافة صفة النجاح إلى أبنائكم فطوروا لديهم الحس السليم على استشعار الفرصة الملائمة والمقدرة السوية على الإفادة منها.

الذباب والبعوض من ألدِّ الأعداء بالنسبة لجدي! لذلك كان يرش غرفته –كل حين– بمبيد الحشرات ثم يغلقها تماماً لمدة ساعتين أو نحوها، بعد ذلك يظل الباب مغلقاً، فإذا أردنا الدخول إلى غرفته أو الخروج منها فلا يُسمح لنا بفتح الباب على مصراعيه، إنما نفتحه بالمقدار الذي يسمح بمرور أجسادنا الصغيرة ثم نغلقه على الفور. رغم ذلك استطاعت ذبابة التسلّل –ذات يوم– إلى غرفة جدي، ثم وقفت على النافذة، فطلب مني المسارعة إلى قتلها، فقمت بتثاقل، وأخذت أبحث عن مضرب الذباب بتكاسل، ثم مشيت ببطء حتى وصلت إلى النافذة، لأجد الذبابة قد طارت بعيداً ولم أعد أراها، وأخذت أبحث

عنها وأدور هنا وهناك، لكنها اختفت في أرجاء الغرفة الكبيرة المكتظة بكتب جدي وأوراقه... عندئذ غضب مني جدي لتباطئي في تنفيذ أمر مهم بالنسبة له، و لتأخري في الاستجابة، ولأني اضطررت بعدهاً لإضاعة وقت طويل ريثما عثرت على الذبابة وتمكنت من قتلها.

يومها قال لي جدي:احفظي هذا الدرس جيداً يا ابنتي وإياك أن تنسيه: " الفرصة ذبابة"! إن فرص الحياة كفرصة قتل الذبابة تماماً، فإن تباطأت أو تلكأت خسرت كثيراً، فلا تتأخري -في المستقبل- عن أي عمل مهم، ولا تتكاسلي مرة ثانية، فإن فرص الحياة لا تنتظرك، وستضيع منك وتطير -إن لم تغتنميها- كما طارت الذبابة الآن، وستحتاجين بعدها لبذل جهد أكبر وإضاعة وقت أطول في البحث عنها من جديد، بل ربما لا تعود الفرصة أبداً.

* * *

كان الدرس واضحاً: الذي لا يغتنم الفرصة باقتناصها فوراً ستفوته ويندم على فواتها حين لا ينفع الندم. ولم يكن المقصود أن أكون متهورة متسرعة، بل أن تكون ردود أفعالي سريعة في المواقف الواضحة التي لا تحتاج إلى إعمال فكر أو التأني لاتخاذ قرار، وأن أبادر إلى التحرك فوراً -في حالة الحاجة إلى العمل- دون تردد أو تباطئ أو تكاسل.

ذلك درس ما زلت أحفظه بكل وضوح بعد عشرين عاماً، وأحدّث عنه الصديقات والأقرباء . وهو درس يتجلّى أمام عينّي كلما

رأيت تردداً يقود إلى إضاعة فرصة أو تكاسلاً يؤدي إلى تفويت منفعة.

ولطالما رأيت مواقف ازداد فيها العلاج صعوبة (حتى ليكاد يستعصي أحياناً) بسبب التأخر في التحرك الإيجابي الفاعل... تستوي في ذلك صغائر الأمور مثل التأخر في كنس قِطَعٍ من الزجاج المتناثر عن الأرض مما يتسبب في جرحٍ بليغٍ بقدم أحد الأطفال قد يستدعي تدخلاً جراحياً لمعالجته؛ وعظائمها: كالتردد والتأخر في معالجة عيب في الطبع لدى أحد الصغار (مثل الأنانية أو العدوانية) بحجة أنه طفل صغير، ثم يكبر الصغير ويكبر معه عيبه فيصبح علاجه من المستحيلات.

* * *

تكوين فضائل

الصّفات والعادات

الآداب الإسلاميّة الاجتماعيّة

استفيدوا من الجلسات العائلية في توجيه أولادكم وتلقينهم مبادئ الأخلاق الإسلامية والآداب الاجتماعية، واجعلوا ذلك التوجيه جزءاً من حديثكم إليهم وتعاملكم معهم بشكل طبيعي وبصورة غير متكلّفة.

في حلقة ماضية أشرت إلى ما كان جدي يصنعه من تحويل الجلسات العائلية العادية إلى جلسات هادفة. وكانت لجلساتنا العائلية الهادفة فوائد أخرى؛ فقد كان جدي يرسخ فيها الآداب الإسلامية التي تعلمناها من أمهاتنا، ويؤكد عليها: كاحترامنا مَن هو أكبر منا سنّاً وتوقيره، فكنا نجلس أمام الكبار بطريقة مهذبة، لا نرفع أصواتنا على أصواتهم، ولا نشترك في حديث لا يخصّنا، وإذا أردنا المساهمة في الحديث انتظرنا الفرصة المناسبة فلا نقاطع من يتكلم حتى ينهي كلامه. وكان جدي لا يسمح إلا لشخص واحد أن يتكلم وعلى الباقين أن

ينصتوا تماماً حتى ينتهي من كلامه وإلا تعرضوا لتنبيه... وكأننا في مدرسة نظامية!

وعندما تمتلئ غرفته بالأهل والأقارب يطلب منا أن نتفسح في المجالس فندعو الكبار إلى الجلوس في أماكننا، ونجلس في المواضع الأدنى.

وعندما نجتمع -نحن الأحفاد الصغار في غرفته وحدنا- كان يطبق علينا القوانين ذاتها فيخصّ أكبرنا بالمقعد المريح، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، على قلة فروق السن بيننا. ويطلب من الأكبر افتتاح الحديث، ثم الأصغر، فالأصغر... متيحاً لكل واحد منا فرصةً للمشاركة ولكن بنظام، وبمراعاة للأعمار. ثم يطمئننا: "فعلاً نحن اليوم صغار لذلك سوف نُظلم ونضطر أحيانا للقيام على راحة الكبار وخدمتهم وإيثارهم بالأفضل، لكن سيأتي يوم نصبح فيه نحن الكبار وسنجد -بالتالي-من يحترمنا ويخدمنا ويُؤْثرنا".

* * *

كان التنبيه المباشر إحدى الطرق التي كان جدي يستعملها لتوجيهنا، فتعلمنا النظام، واستفدنا من هذا الأسلوب بشكل كبير لأنه أتاح لنا الفرصة لسماع الموضوع المطروح متسلسلاً من أوله إلى آخره، فكانت هذه المتابعة والإنصات لما يعقب الموضوع من أسئلة ومناقشات سبباً في تثبيته تماماً في ذاكرتنا.

وكما كان جدي يلجأ إلى التوجيه المباشر، فإنه كان يستعمل أسلوب التوجيه غير المباشر في كثير من الأحيان، فيتعمد النصيحة لنا بطريقة مبطنة أثناء الحديث متظاهراً بأنه يسلينا، أو يوجه كلامه إلى إحدى أمهاتنا فتتفاعل معه حتى تساعد في إيصال النصيحة كاملة لنا، ليوجهنا من خلالها، فيقّوم خطأ، أو يدلّنا على مكرمة لنقوم بها.

لقد نجح جدي في توجيهنا لأنه جعل هذه الآداب قانوناً عاماً يسري على الجميع كباراً وصغاراً فأشعرنا بالعدل، وساعدنا على الالتزام بها برضا واطمئنان.

* * *

الإيثار في الطعام

تظهر الأنانية، أكثر ما تظهر، عند الاستئثار بالطعام. فحاربوا هذا الطبع وقّوموه في مثل هذه المواقف ونبهوا أبناءكم إلى بشاعة الأنانية والاستئثار واحملوهم على أن يبدلوا بهما التضحية والإيثار ليفوزوا بحب الناس ورضا رب الناس.

الأثرة وحب الذات خلق مذموم نهى عنه الإسلام وحذر من التخلق به داعياً إلى الإيثار والتكافل بين الناس؛ لذلك حرص جدي على أن نتخلق بهذه الصفة، خاصة فيما يتعلق بالطعام. فعلمنا أن لا نتسابق إلى المائدة إذا جاء موعد الطعام بل ننتظر حتى يجلس الكبار، ثم نتقدم –نحن الأحفاد– بهدوء، وقد طمع كل واحد منا بأن يحظى بثواب الإيثار، فترانا يدعو بعضنا بعضاً إلى المكان الجيد، أو نتأخر عن الباقين في البدء بالطعام حتى لا تزدحم المائدة.

وكان جدي يوجهنا، أيضاً، إلى وجوب الانتباه إلى عدد الحاضرين وإلى كمية الطعام: فإذا كانت بعض الأصناف قليلة الكمية وجب علينا أن نستعين بالرياضيات، فنقسم كمية الطعام على عدد الموجودين لنعرف حصتنا من ذلك الصنف القليل الكمية، فنأكلها ولا نزيد عليها لكي نتيح الفرصة لغيرنا ليتذوق ذلك الصنف ولنتجنب الأنانية. لذلك كنا نتعفف عن آخر قطعة من أي صنف، فلا يجرؤ أحد منا –مثلاً– على شرب العلبة الأخيرة من العصير أو المشروب الغازي أو تناول القطعة الأخيرة من الحلوى (التي صرنا نسميها –من باب الفكاهة–: "القطعة المقدّسة") فتظل بغير صاحب وتبقى على الطاولة لا يقربها أحد!

* * *

و كان أسلوب جدي الدائم المتميز في التوجيه أنه:

(1) يلقننا المبادئ والأخلاق الجيدة كلما وجد فرصة مناسبة، ويراقب الأخطاء وينبّه وينصح.

(2) ثم يبتكر موقفاً لطيفاً يختبر فيه مدى استيعابنا ومقدار امتثالنا، وقد يثبّت ذلك الموقفُ تلك المبادئَ فلا ننساها أبداً.

وهذا ما حدث: فذات يوم، وبينما نحن متفرقون في أنحاء المنزل منهمكين بواجباتنا اليومية، جاء جدي بلوح كبير من الشكلاتة فقطّعه قِطَعاً غير متساوية، بل متفاوتة كثيراً في الحجم، ثم رتبها في صحن كبير

وأخذ يدور علينا حفيداً حفيداً يدعو كل واحد منّا لأخذ قطعة من القطع -ليختبرنا- ونحن لا ندري وما نظن إلاّ أنه يكرمنا بذلك، فمنا من أخذ القطعة الصغرى ومنا من أخذ الوسطى ومنا من أخذ غير ذلك.

وقد حدثتني إحدى الحفيدات -من قريب- عن تلك الحادثة فقالت: فوجئت بجدي عندما اقترب مني حاملاً الصحن، واستغربت أكثر عندما قدم لي هذه القطع المتفاوتة الحجم فأخذت كبراها. فنظر إلّي جدي طويلاً ثم قال:" لقد أخذت أكبر قطعة يا ابنتي". فشعرت بالحياء الشديد ولم أدرِ ماذا أفعل في تلك اللحظة. ثم علقت: "لقد مّر على هذه الحادثة عشرون عاماً لكني لم أنسَ أبداً هذا الدرس؛ ومن يومها وأنا أنتبلكل ما يُقدَّم إلي فأختار من أكواب العصير أقلها تعبئةً ومن أطباق الطعام أقلها كمية، وإذا كان الطعام في طبق كبير تأخرت حتى يستوفي الحضور حاجتهم منه ثم أتقدم أنا... كل ذلك إيثاراً للآخرين وطمعا في الثواب".

ذلك تعليقٌ لواحدة من الذين تلقوا الدرس تذكره بعد الحادثة بعشرين عاماً ؛ فهل سمعتم بدرس في التربية يبقى أثره قوياً فاعلاً كل هذا الوقت؟!

* * *

احترام الموعد

إخلاف الوعد خصلة من النفاق وممارسة اجتماعية يسيء بها الناس بعضهم إلى بعض. احترموا مواعيدكم وأوفوا بالتزاماتكم وقدموا لأبنائكم المثل الحي والنموذج التطبيقي الصحيح لهذا السلوك القويم.

حين أسترجع طفولتي محاوِلةً تلمس المزيد مما تعلمته من جدي أحس بالدهشة والعجب إذ أتذكر كيف كان يتعامل مع الموعد وكم كان دقيقاً في الوفاء بالمواعيد. كانت تلك خصلة متأصلة في نفسه يهتم لها اهتماماً زائداً، ويتقيد بها ويلتزم بأدائها بالدقيقة، بل بالثانية، حتى أضحت الصفةَ التي تميز شخصيته، وأمكن ضبط الساعة على مواعيده!

إنها قاعدة ما خرقها جدي أبداً، ولا خرج عنها يوماً، ولا تعذّر عن أدائها بعذر. وكان يستعين على مواعيده وأموره كلها بساعة مضبوطة كبيرة الحجم معلقة بشكل بارز في غرفته، مقابل مجلسه، وكان

ينظر فيها بين حين وحين، فيجوع إذا أشارت الساعة إلى موعد طعامه وينعس إن دلّت على موعد نومه.

أما إذا أراد الخروج فإنه يعد عدته ويجهز الأوراق اللازمة ويحشوها في شنطته، ثم يلبس كل ثيابه ويجلس على كرسيٍّ عند الباب ممسكاً ساعةيدوية صغيرة مراقباً عقاربها، مستعجلاً وقت رحيله، كارهاً دقائق الانتظار الأخيرة. وطالما جلست معه محاولة التحدث إليه والسماع منه، وهو منشغل عن حديثي بانتظار السيارة التي سوف تقله إلى مبنى التلفزيون لتسجيل برنامجه.

* * *

وكان هذا شأنه دائماً في علاقاته مع الناس؛ فإن أعطى موعداً تجهز له قبل الوقت المحدد بعشر دقائق، ثم جلس مرتقباً وقد أعد العدة لموعده ذاك كأنه أجّل المواعيد وأعظمها شأناً. فكنت أراه –إذا وعد زائراً–جالساً منتظراً في غرفة الاستقبال وقد لبس ثوبه ووضع عباءته.

وكان يعتبر تأخر صاحب الموعد في الوصول (ولو لدقائق معدودات)ذنباً يستحق العقاب الصارم، حتى لأذكر أن رجلاً وعد جدي ذات مرة بزيارة وحدد له ساعة معينة، فاستعد جدي –شأنه دائماً– قبل الموعد ولبث ينتظر، وينظر في الساعة وينتظر، وينظر وينتظر! والانزعاج بادٍ على ملامحه والضيق ظاهر في وجهه، حتى مرت ثلث ساعة كاملة. عندها دق الجرس وحضر الرجل، ففتح له جدي الباب كاظماً غيظه، وأدخله غرفة الضيوف، ثم تركه وحده وعاد

للجلوس مع جدتي وبناته. جلس معهن ثلث ساعة كاملة، أي بالقدر الذي تأخره الرجل تماماً دون زيادة أو نقصان، والرجل جالس وحده في غرفة الضيوف دون أنيس أو جليس أو طعام أو شراب. لقد قدّم جدي –لذلك الرجل–درساً عملياً أشعره فيه بالأذى الذي يسببه المرء للآخرين بإخلافه الوعد، ثم استقبله فأحسن استقباله وآنسه وأكرمه كأحسن ما يكرم المرء ضيفه.

كان ذلك درساً قدمه جدي لضيف غريب، أما نحن –أبناءه وأحفاده والمقربين منه– فالويل كل الويل لمن يخلف معه الوعد أو يتأخر في الموعد. كان عقابه لنا –إن فعلنا– أشدّ وأقسى حتى بتنا نحذر أن نقدم وعداً لا نضمن تنفيذه أو نحدد موعداً لا نتيقن الوفاء به.

* * *

كان احترام المواعيد من أكثر ما سعى جدي إلى إقناع الناس به وحملهم عليه. ولم تكن تلك دعوة في كتاب فحسب، بل كانت منهجاً عاشه وألزم به نفسه وأهل بيته ثم سعى إلى بثّه ونشره بين الناس، فهل كان مبالِغاً في ذلك إذا علمنا أن الخلف في الوعد ربع النفاق أو أنه ثلث النفاق!؟

* * *

تقدير النِّعم
والمحافظة عليها

الاعتناء بالأشياء

علموا أبناءكم أن نعم الله تدوم بشكرها، وشكرها في الحفاظ عليها وعدم الاستهتار بها. لا تستهينوا بشيء وحافظوا على ما تملكون وحاربوا –في بيوتكم ولدى أبنائكم– داء البطر وعلة الاستهتار.

لست أدري إن كانت هذه الحلقة (والتي تليها) لمسة تربوية خاصة بجدي أم أنها أسلوب حياة نشأ عليه معظم أهل الشام واعتادوه فصار تقليداً عاماً، وعرفاً متبعاً. لكن الذي أعرفه أن جدي عاش حياة مميزة حافلة بالتغيرات، فكان العالَمُ الذي فتح عليه عينيه ودرج فيه أيام طفولته غيرَ العالِم الذي نعرفه ونعيش فيه اليوم. لم تكن في دمشق في تلك الأيام –كما ذكر في كثير من كتبه– شوارع كبيرة ولا عمارات عالية، ولم تكن بيوتها تضاء بالكهرباء، ولا عرف الناس الراديو ولا التلفزيون ولا التلفون ولا مواقد الغاز ولا الغسالات أو البرادات. ولم تكن في الشام يومذاك غير خمس سيارات صغيرات، ولم يركب أحد من أهلها الطائرات، ولم يكن شيء من مظاهر هذه الحياة النافعة.

ثم تبدلت هذه الحياة شيئاً بعد شيء، فعايش جدي التطور التقني من أوله. وتابع المخترعات والمكتشفات، فأدرك آينشتاين ومدام كوري وأديسون وماركوني وكثيراً من رواد هذا العصر وأعلام العلم فيه. وهو قد علّق على ذلك فقال: "تبدلت الأحوال وتغير المجتمع في هذه السنين الخمسين أضعاف أضعاف ما تبدلت في القرون الخمسة الماضية، كان الدهر دولاباً يدور ببطء عقرب الساعة فصار يدور بسرعة مراوح الطيارة".

* * *

هذه الحياة الحافلة (التي بدأت صعبة شاقة ثم دخلها التطور فصارت سهلة مريحة) جعلت للأشياء قيمة في ذلك الزمان، وأشعَرتْ من جرب الغسيل بيديه والمشي على قدميه بروعة الفرق بين ذلك وبين استعمال الغسالة وركوب السيارة.

وخوفاً من أن يصيبنا داء البطر، أو نعتاد الاستهتار -لأننا لم نعانِ كما عانى جدي ولم نعِش الحياة القاسية التي عاشها- أشعرنا بقيمة الأشياء في حياتنا لما تقدمه لنا من سرعة في الأداء وتوفره علينا من الجهد والعناء، وواجبنا -بالتالي- أن نحافظ عليها لتخدمنا فترة أطول.فكانت هذه المفاهيم من أوائل ما نشأنا عليه ولُقِّنّاه في بيت جدي: أن نحافظ على أغراض البيت بصفة عامة وأشيائنا بصفة خاصة، فنستعملها بالأسلوب الصحيح، وفي الوقت المناسب. فالسرير صُنِع للنوم، والأرائك للجلوس، والطاولات لتوضع عليها الأشياء، فلا

يُسَمح لنا باستخدام أثاث المنزل للقفز أو العبث المفسد أو اللعب المؤذي.والذي كان يميز توجيه جدي لنا في هذا المقام وحرصَه على أن نتعلم الاعتناء بالأشياء، اهتمامُه بالأشياء الصغيرة -التي لا تخطر بالبال- بقدر اهتمامه بالأمور الكبيرة الواضحة، فلم يكن ليقلل من قيمة أي مخالفة لهذا التوجيه لأن السلوك الغير المناسب إذا لم يعدَّل في أول أمره ازداد تمكناً حتى يصير عادة يصعب التخلص منها والقضاء عليها. فمن ذلك مثلا: أنّ من عادة البعض -إذا انهمك في الحديث- أن يتناول ما تقع عليه يده من التحف والأشياء التي تُصَفُّ عادةً على الطاولات للزينة فيعبث بها أو يقلّبها بين يديه، فكان ينهانا عن ذلك لأنه مدعاة إلى مفسدتها وخروج عمّا وضعت له هذه الأشياء من أغراض. وكان يهتم بشريط الهاتف اللولبي فلا يسمح لأحدنا بالمبالغة بشدِّه لأنه سيفقد -عندئذ- مرونته ولا يعود أبداً إلى طوله وشكله الطبيعيين، وفي هذا إفسادٌ له وتشويه لمنظره!

* * *

لم نرمِ في بيت جدي شيئاً ولم يكن في قاموسنا أن الأشياء تُرمى، فكل شيءٍ في بيتنا كان مرتباً نظيفاً جيداً حالُه، وكان يتم إصلاح الأشياء التي تفسد لتصبح صالحة للاستعمال من جديد، أما الأشياء التي أصبح طرازها قديماً أو التي أنهكتها الأيام وأذهبت بريقَها كثرة الاستعمال، من ملابس وألعاب وأدوات طبخ وسواها، فإنها تُعطى لعائلة مستورة فيحصل لها النفع باستخدامها، ولنا الشكر عليها من الناس والثواب من الله.

ذلك كان الدرس العظيم الذي حملناه طوال حياتنا: احفظ نِعَمَ الله يُدِمْها عليك، واشكره عليها بتقديرها وعدم الاستهتار بها يَزِدْكَ منها، وأَفِضْ على من يحتاج من عباده ما يزيد عن حاجتك منها تفز بشكر الناس ورضا رب الناس.

* * *

المحافظة على النعمة

الدنيا ليست دار قرار وكل ما فيها إلى تقلب وزوال. تعلموا وعلموا أبناءكم أن تُحفظ نعم اليوم لغد، واحرصوا على الاقتصاد في الموارد ولوكانت بغير ثمن أو بقيمة زهيدة (كالماء والكهرباء) فذلك جزء من الدين. ألم نُؤمر بالاقتصاد في استهلاك الماء في الوضوء ولو كنا على نهر دفّاق؟

كما عرف جدي هذه الدنيا ولمّا تدخلها مخترعات العصر التي أحالت صعوبة الحياة يسراً وعناءها رغداً، فكذلك هو قد أدرك الحياة الصعبة القاسية التي لا يكاد الناس فيها يجدون ما يكفيهم ويكفي أولادهم من غذاء وكساء. إليكم بعض ما كتبه عن تلك الأيام القاسية المجدبة: "كتب الله علينا أياماً عجافاً لتكون تدريباً لنا وتمريناً ونزداد بها طاقةً على خوض غمرات الحياة. كانت الشام أرخصَ بلاد الله وأكثرها خيرات، فما جاعت -قط- في عمرها الطويل إلا تلك الأيام، حتى كنت أمرُّ على الجائعين الممددين على جوانب الطرق والذين يبحثون عن شيء يأكلونه والذين ينبشون أكوام القمامة لعلهم يجدون

فيها بقايا طعام، وما ذلك إلا لأن الترك أخذوا قمح الشام إلى حلفائهم الألمان، وتركوا أهل الشام كما تركوا جنودهم في الميدان بلا طعام، وزاد البلاء الجراد الذي كنس الحقول وقضى على كل شيء مر عليه".

كل ذلك علّم جدي أهمية النعم وضرورة المحافظة عليها حتى تدوم، فكان هذا من أوائل الدروس التي علَّمنا إياها ونشَّأَنا عليها، فلا نترك الأنوار مضاءة في الغرف الفارغة، ونحكم إغلاق صنابير المياه بعد استعمالها، ونتناول المناديل ،من علبة المناديل، بحسب الحاجة: منديلاً أو اثنين، لا مجموعةً يُهدَر أكثرها بغير فائدة.

وأهم من هذا كله وقبل هذا كله: عدم رمي الطعام، حتى كسرة الخبز كان ينهانا عن الاستهتار بها ويخّوفنا من عقاب الله إن رميناها، ويحذرنا أن الله قد يحرمنا منها في الدنيا قبل الآخرة، لذلك كنا لا نجرؤ على ترك لقمة في أطباقنا بل نحرص على مسحها جيداً من بقايا الطعام، وكان هذاً من القوانين الصارمة التي تُطبّق على الجميع، كباراً وصغاراً؛ فكانت أمهاتنا تعلمننا أن لا نصب في أطباقنا مقداراً زائداً عن حاجتنا.فإذا عجزنا عن تقدير تلك الحاجة، صببنا مقداراً قليلاً وكلما انتهى صببنا غيره حتى نشبع، وبذلك لا نترك في أطباقنا أي بقايا نتحمل إثم رميها مع القمامة. وتعلمنا أن نأكل البائت من الطعام (الذي بقي من طبخ يومٍ سابق) ولا نجد في ذلك حرجاً. وكنا نتعرض لتأنيب شديد لو رفضنا نوعاً من الطعام ونُجَبر على أكل الصنف الموجود مهماً كان، ونحمد الله لأنه رزقنا إياه وتفضل علينا به.

* * *

سيخطئ الفهم من يظن أن هذا كله كان لبخلٍ في جدي أو حرماناً منه لأهل بيته؛ بل هو كريم غاية الكرم، أغدقَ علينا من كل شيء، وكان يشتري من كل صنف أضعاف ما يُحتاج إليه فتدخل البضائع بيتنا بالصناديق. لكنه أراد لنا الخير: عوّدنا أن لا نستهلك كل ما في يدنا في يوم أو بعض يوم، لأن هذا إسراف والإسراف منهي عنه، بل نأخذ من كل شيء بمقدار. وعلّمنا أن نحتاط في كل يوم لغد، فربما يذهب الخير أو يزول ما في يدنا فنأسى على كل نعمة لم نقدرها حق قدرها أو رزق ضيّعناه في غير منفعة.

أليس هذا هو الدرس الذي يحتاجه اليوم كثير من الناس وتفتقر إليه أكثر الدول والمجتمعات؟

* * *

في عالم الكتب
وفي رحاب المعرفة

الأحاديث المفيدة

لماذا تكون الجلسات العائلية هدواً للوقت بما تزخر به من أحاديث سخيفة أو سبباً في اكتساب الإثم لما تحفل به من غيبة ونميمة؟ أفيدوا أنفسكم وأبناءكم في الدنيا والآخرة بأن تجعلوا من هذه الجلسات واللقاءات مناسبة لبحث أمور مفيدة والحوار في مسائل علمية ممتعة.

جدي لا يحب الجلسات الفارغة التي تتناول أحاديث سخيفة لا قيمة لها، أو التي تطرق موضوعات هامشية لا يُستفاد منها؛ لذلك كان غالباً ما يحوّل الجلسات العائلية الهادئة إلى جلسات علمية هادفة، ممتعة و مسلية، حتى أننا كنا -ونحن أطفال- نترك اللهو واللعب لننضم إلى هذه الجلسات لما نجده فيها من المتعة والفائدة . وكان إبداعه يتجلى في طريقته البسيطة السهلة عند نقل الحديث من موضوع عادي إلى موضوع جوهري، حيث يلتقط، بسلاسة، كلمة من الحديث الدائر بيننا ليحوّل بها مسار البحث وينتقل إلى الموضوع المفيد.

أذكر أن أحدهم قال بالفصيح : هل تغلق الباب من فضلك؟ فجعل جدي من كلمة "تغلق"مدخلاً إلى حديث طويل ممتع سائلاً: ما هي الدولة التي نسبت إلى "تغلق" ؟ ومتى وأين قامت؟

وبذلك دخلنا في التاريخ والأعلام ! ثم انتقل الحديث إلى الدين وما حققته هذه الدولة بسبب تمسكها بالإسلام واهتمامها بتطبيق أحكامه ... و هكذا، حتى يتشعب الحديث إلى اللغة أو الفقه أو سواهما من العلوم ، وجدي مسرور يرّد على أسئلتنا واستفساراتنا، شارحاً ما يهّمنا، طارحاً أقوال العلماء ومناقشاً أدلة المذاهب ومحيلاً على ما يلزم من الكتب والمراجع. وما كان حديث جدي –مهما كان موضوعه– ليخلو من حكمة مفيدة، أو بيت من الشعر، أو نادرة عربية قديمة، أو قصة واقعية غريبة، أو حكاية مضحكة من ذكرياته. وكل ذلك يرّوح عنا ويخفف من كّد الجّد وإعمال العقل. ثم كان جدي –في نهاية هذه الجلسات–يرشدنا إلى الكتب التي نجد فيها تفصيلاً لما طُرح في الجلسة من معلومات، وربما حدثنا عنها وعن مؤلفيها حاثّاً ومشّجعاً على الرجوع إليها والاطلاع عليها.

* * *

لقد بدت تلك الأحاديث –دائماً– عفوية تلقائية، فلا أكاد أذكر قط أن جدي جمعنا في مكان خاص ليحدثنا أو ليلقي علينا موعظة أو ليعطينا درساً في الدين، لكن الفائدة التي حصلنا عليها من تلك الجلسات كانت عظيمة وبقي نفعها سنين طوالاً من بعد.

المراجعة في الكتب

اجعلوا الكتاب رفيق أبنائكم منذ الصغر، وناقشوهم في مسائل العلم وعلموهم المراجعة في أُمّات* الكتب وعودوهم أن يبحثوا بأنفسهم في الكتب والمراجع عن أجوبةٍ للأسئلة التي يسألون.

كثيراً ما كنا نحتاج إلى طرح الأسئلة المختلفة على جدي، وكثيراً ما كان يهتم بالإجابة شارحاً، موضّحاً، مسّمياً لنا الكتب التي استعان بها، مثنياً على علم مؤلفيها، مؤكّداً علينا المراجعة فيها .

وكنا –مع التكرار– قد حفظنا أسماء بعض الكتب وأسماء مؤلفيها، وعرفنا موضوعاتها الرئيسية: من فقه وحديث وتفسير...كما تعرفنا إلى نظام الكتب في التبويب، والهيكل العام لكتب الفقه والحديث. فبدأ جدي يطلب منا –في بعض الأحيان– أن نبحث بأنفسنا عن جواب

* تجمع "أم" للعاقل على "أمهات" ولغير العاقل على "أُمّات"، كما في القاموس.

لأسئلتنا الفقهية والدينية –رغم صغر سننا– ليعوّدنا التعامل مع الكتب، وليعلمنا الطريقة الصحيحة للمراجعة والبحث فيها. وصار – كلما سألناه– يحاورنا:

ما هو موضوع السؤال (تفسير، تاريخ، فقه) ؟

في أي كتاب نتوقع الإجابة ؟

كيف تتم الإجابة في الكتاب المقترح ؟

ثم يحيلنا على مكتبته الواسعة، فنأتي بالكتاب تلو الكتاب، نبحث فيه بإرشاد جدي وإشرافه، حتى نصل إلى المسألة المطلوبة، فيطلب منا أن نقرأ ونشرح ما فهمناه، ويوضح ما استغلق علينا فهمه، ثم يبين لنا الدليل الأقوى، ويرجح الفتوى الأصح.

* * *

وكانت تواجهنا أحياناً –أطفالاً– مشكلة أخرى عويصة، فإذا أخطأنا في قراءة كلمة ما؛ وجب علينا إعرابها! والمشكلة الأكبر كانت دائماً في إصرار جدي علينا بأن نراجعها في القاموس لضبطها بالشكل!

لا أخفيكم كم كان ذلك يضايقنا... وطالما امتنعنا عن الأسئلة خوفاً من هذه النتيجة. ولكننا –رغم ذلك– لم نكن ننجو دائماً، فما

أكثر ما تورطنا بالبحث والمراجعة بسبب سؤال من أحد الضيوف أو من أحد الكبار في الأسرة!

لكني اليوم أشكر جدي وأدعو له، فقد أفادنا أسلوبه كثيراً : أثرى حصيلتنا من المعارف والعلوم منذ الصغر، وسهل علينا البحث والمراجعة فيما عرض لنا عند الكبر، فصارت المراجعة في كتب العلم من أسهل الأشياء وأمتعها لنا، وصرنا نجد في الكتب والمراجع القديمة (التي يخاف من فتحها والنظر فيها كثير من الناس) مصدر أنس وتسلية وإمتاع.

* * *

قيمة الكتاب

حب الكتب والتعلق بها مرضٌ مُعدٍ فاحرصوا على نقل العدوى به إلى أبنائكم، وعلموهمً الأسلوب الصحيح لاستعمال الكتاب والتعامل معه والمحافظة عليه.

مارأيت جدي يحبّ شيئاً حبَّه للكتب، نشأ على ذلك صغيراً وكبر عليه حتى صار بعضاً من طباعه الأصيلة وواحداً من حاجاته الأساسية، فلا يستغني عن الكتاب إلاّ بقدر ما يستغني عن الطعام والشراب والمنام وسواها من أساسيات الحياة. حدّث هو عن نفسه كيف توفي والده وعليه ديون فبيع كل ما في الدار وفاءً لها إلا الكتب وقف جدي دون بيعها؛ هان عليه فَقْدُ الفراش والمتاع ولم يحتمل فَقْدَ الكتاب. ولما اضطرته الظروف إلى مفارقة بلده وترك بيته لم يسأل عن شيء من متاعٍ أو مال غيرَ كتبه، فكتب متحسّراً: "دنيا طالب العلم مكتبته، ومكتبتي في الشام مودعة في خمسة وثمانين صندوقاً لم تُفتح من إحدى عشرة سنة، ولست أدري أأكلتها الأَرَضة أم هي سالمة لا تزال؟ وأنا هنا محروم منها لا أستطيع الوصول إليها." (كتب جدي هذا في

مكة قبل خمسة عشر عاماً، فيكون قد مّر اليوم على كتبه بعيدةً عنه في صناديقها ستة وعشرون عاماً).

كانت سعادة جدي في اقتناء الكتب، وامتلاك نفائسها، فكان –لذلك– دائم الاطلاع على عالم الكتب يسأل عن القديم والجديد فيها، ويطلب من كل مَنْ له صلة بالكتاب أن يزّوده بكل طريف ومفيد، فإذا وجد كتاباً جديداً مفيداً أو خفيفاً طريفاً لم يتردد في طلب عدد من النسخ لتوزيعها على بيوت بناته كافة.

لقد قال جدي دائماً إنه كان يقرأ في كل يوم ساعات، فإذا أقلَّ القراءةَ يوماً قرأ مئة صفحة، وإني –إذ أحاول استرجاع صورته يوم كنت صغيرة وكيف كان حين نشأت لأتخيّله جالساً دوماً في تلك الزاوية المخصصة له واضعاً نظارته وممسكاً بواحد من كتبه، وقد حفّتْ به أكوامٌ من الكتب والمجلات والجرائد والأوراق مجّمعةً على غير نظام تنتظر دورها للقراءة أو الفرز والتوزيع.

* * *

تلك كانت "العدوى" الأولى التي نشرها جدي بين أهل بيته: **حُبُّ الكتب** حتى صار ذلك طبعاً لازماً لأكثرهم فيحرصون على اقتناء الكتب وزيادتها كما يقتني الناس أنواع الأثاث ويتفاضلون فيه، حتى كان في أكثر بيوت بناته وأسباطه غرفةٌ خاصة للكتب والمراجع.

أما "العدوى" الثانية فهي: **احترام الكتاب** ورعايته والعناية به والحرص عليه. لقد كان التعامل مع الكتب عند جدي علماً لا بدّ من إتقانه، فالكتب لا يُشترى كل يوم، إنما هي نسخة واحدة وتبقى إلى آخر العمر، وقد يرثها الأبناء من بعد. لذلك كان يعلّمنا طريقة تناول الكتاب عن الرف بحيث لا يفسد غلافه: فنضع السبابة على الطرف العلوي من حرفه الخلفي ونميله برفق حتى نتمكن من إمساكه بيدنا، ثم نسحبه. أما تقليب الصفحات فإن له فنّاً آخر: فكان يمنعنا منعاً صارماً من لعق أصابعنا قبل قلب الصفحة (خوفاً على الورق من الفساد بسبب البلل) أو الضغط على الورقة بشدة في زاويتها السفلية اليسرى لقلبها (لأن ذلك يشوّه الورقة وقد يتسبب في تمزق طرفها). أما الأسلوب الصحيح للتقليب فهو جذب الورقة بسبابة اليد اليسرى (بمساعدة الإبهام والوسطى) من الزاوية العلوية اليسرى للكتاب، جذباً إلى الأعلى لا ضغطاً إلى الأسفل! ثم كان يحظر علينا أن نضع داخل الكتاب قلم رصاص أو كتاباً آخر أو أي شيء يزيد سمكه عن ورقة، فضلاً عن قلب الكتاب وهو مفتوح، لأن ذلك يفسّخ كعبه ويفرّق ملازمه.

وما وجدت جدي -طَوال معرفتي به- يحرص على شيء حرصَه على كتبه، فهو لا يسمح بخروج الكتاب خارج باب بيته إلا بظروف استثنائية، وبإذن رسمي، مشترطاً مدة محدّدة غير طويلة لإعادة الكتاب إليه، ضنّاً به وخوفاً عليه، ثم هو يسأل المستعير عنه كلما قابله أو

هاتفه حتى يقول: ليتني لم أستعِرْ كتاباً من الشيخ، ولعلّه لا يعود إلى طلب كتابٍ بعدها!

نعم، أمران نشر جدي بين أهل بيته العدوى بهما (وأكرم بها من عدوى!): حب الكتاب، واحترامه كأثمن ما يمكن للمرء أن يحوز... فهلاّ ساعدتم -أسوةً به- في نشر هذا الداء العجيب في بيوتكم وبين أهليكم؟!

* * *

فن القراءة

احرصوا على القراءة كل يوم في كتاب مفيد، ولو صفحات معدودات. إنكم تغذون أجسامكم كل يوم بالطعام والشراب مهما تكن الظروف، فلماذا تزهدون في تغذية عقولكم في كل يوم مهما تكن الظروف؟ واعلموا أن للقراءة الصحيحة المفيدة أصولاً وقواعد فتعلّموها وطبقوها لتستفيدوا من قراءاتكم غاية الفائدة.

أراني اليوم وقد رجعت لأكمل الكتابة في حديث مسبوق وموضوع مكرور، فقد عدت من جديد لأتكلم عن الكتاب، عن ذلك القرين والصديق الذي لازم جدي طوال حياته فكان له الصاحب الوفي والرفيق المخلص الذي بقي معه دائماً ولازمه في كل الظروف: كان الصديق وقت الضيق، وكان الجليس عند فقد الأنيس، وكان له الفضل في المكانة العلمية والأدبية التي وصلها جدي.

حديثي اليوم يتجدد عن الكتاب: هذا الصديق الذي ما ملّه جدي قط، ولا رغب عنه يوماً، ولا شغله عملٌ عن الاستزادة منه، ولا صرفه لهوٌ عن الأنس به، وهذا ماقاله جدي -قديماً- عن هذا

الصديق: "كنت طوال عمري عائشاً وحدي، أنيسي كتابي، فكنت أمضي يومي -إلا ساعات المدرسة- في الدار لا أجد ما أشغل به نفسي وأملأ به فراغ حياتي إلا القراءة".

لذلك أجدني -مهما حاولت الابتعاد عن الكتاب والانتقال إلى سواه من الموضوعات والذكريات- عائدة إليه ومقتصرة عليه. جدي يذكرني بالكتاب والكتاب يذكرني بجدي: قرينان لاينفكّان وصنوان لا يفترقان. وكيف لي بالهروب من هذا الحديث والافتراق عن ذاك القرين وقد تعلمت أنا نفسي حب الكتاب، وأصبحت القراءة جزءاً من برنامجي اليومي وبعضاً من أساسيات حياتي؟

* * *

تجربة طولها ستون عاماً أهدانيها جدي حينما أصبحت قادرة على الإفادة منها: فتعلمت منه أن أقرأ كل يوم عدداً من الصفحات لا يقّل عن عشرين -مهما كانت الظروف والمشاغل- فإني إن تعللت وتثاقلت عن المطالعة بسبب الظروف ما كنت لأقرأ أبداً لأن الملاهي والصوارف لا تنتهي، فصرت أحذو حذوه، حيث كان يتصفح ما يصله من الجرائد والمجلات كل يوم، ويقلّب باهتمام زائد كل كتاب تقع عليه يداه مهما كانت مادته (سواء كان في الأدب أو الفقه أو التاريخ أو الطب أو العلوم أو غير ذلك)، فإن أحبه أتم قراءته وإلا تركه إلى غيره. وقد أفادني من مطالعته تلك حيث كان يدلني على النافع والمفيد، وأرشدني إلى بعض الكتب التي تغني من يقرؤها عن الكثير من أمثالها

ومنها: "فجر الإسلام" لأحمد أمين و"نور اليقين" للخضري و"تاريخ الخلفاء" للسيوطي و"الجامع الصغير" للسيوطي. وكان يهتم كثيراً بالأسلوب الأدبي الجيد وسلامة اللغة ويرى أن قراءة كتب المنفلوطي والرافعي والمازني وأمثالها تساعد كثيراً على تحسين السليقة وتقوية اللغة.

* * *

وعلمني فن القراءة؛ أي الطريقة الصحيحة لقراءة أي كتاب:

(1) أقرأ العنوان جيداً (وإن كان العنوان لا يعبر أحياناً عن مضمون الكتاب بسبب سوء الاختيار أو تشابه الموضوعات).

(2) ثم أنتبه لاسم المؤلف فلا أقرأ لأيٍ كان لأن اتجاهات الكاتب وقناعاته في الحياة سوف تظهر -على الأغلب- في كتابه، وربما كان مفسداً مدلساً.وقد سمى لنا بعضاً من أولئك الكتّاب ونهانا عن القراءة لهم قبل أن يشتد عودنا لما يُعرف من انحرافهم وفساد عقيدتهم، مثل جورجي زيدان في رواياته المسّماة: "روايات تاريخ الإسلام") خوفاً من أن نعجز عن التمييز بين الصحيح والخطأ.

(3) ثم أقرأ المقدمة بعمق وتفصيل إذ هي التي تبين الغرض من الكتاب، وتوضح محتواه، وتشرح الطريقة التي عرض بها المؤلف الأفكار والأساس الذي قام عليه تقسيمه للفصول.

(4) ثم أستعرض فهرس الكتاب فأستوعب محتواه وأحيط بمادته بنظرة سريعة شاملة.

(5) وأخيراً أقرأ الخاتمة (إن وُجدت) بعمق لأن فيها زبدة الموضوع ومغزى الكتاب.

هذا الأسلوب يمنح القارئ فكرة واضحة عن مضمون الكتاب وأسلوبه في زمن وجيز، فإن أحبه أكمله وإن رغب عنه تحّول إلى سواه، كما أنه يوسع القاعدة الثقافية للقارئ الذي يعتاد النظر في كل كتاب تقع عليه يداه فتتراكم لديه –مع مرور الأيام– معلومات عامة عن كثير من الكتب وكثير من الكتّاب.

* * *

انتهت الحلقات...

ولكن، مهلاً!

فقد بقيت في جعبتي لمسة أخيرة صغيرة من هذه اللمسات التربوية أحب أن تعلموها فتعملوا بها حتى يتحقق النفع وتحصل الفائدة من كل ما سبق طرحه من أفكار وما سقته لكم من لمسات. إنها عن أمر قد يبدو سهلاً يسيراً، ولكنه ممل عسير صعب التطبيق. ذلكم هو: "**الدأب والمتابعة**". نصيحتي لكم:" لا تسأموا، ولا تملوا، ولا تقولوا: لا فائدة. بل داوموا وثابروا وحاولوا المرة بعد المرة؛ فلن ينفع شيء في عملية التربية كالتكرار والإعادة والمتابعة والمداومة على التوجيه". هذه النصيحة استوحيتها من منهج جدي في التربية، ولعلها السبب الرئيس في نجاحه التربوي المتميز. وإليكم مثالين اثنين فقط انتقيتهما من فيضٍ من الأمثلة التي أتذكرها في هذا السياق:

كانت واحدة من الحفيدات متميزة في مواهبها وقدراتها لكن فيها عيباً جلياً في تقصيرها في دراستها، فكان جدي -إذا رأى منها هذا العيب- يقول لها بعتاب رفيق:

ولم أَر في عيوب الناس عيباً   كنقص القادرين على التمام

لم يردد على سمعها هذا البيت من الشعر مرة أو مرتين أو عشراً، بل هو صنع ذلك مئات المرات شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام، لا يسأم ولا يمل ولا ييأس، حتى استقام هذا الطبع في تلك الحفيدة أو كاد يستقيم.

وواحدة أخرى من الحفيدات كانت مبتلاة بسرعة الكلام، فنبهها إلى ذلك العيب، ثم أرشدها إلى إخراج كل حرف من مخرجه الصحيح مع إبطاء تدفق الكلمات ومنحِها ما تحتاج من وقت حتى تخرج واضحة مفهومة. بعد ذلك ابتكر طريقة عجيبة للعلاج فاتفق معها على أن تنطق كلمة واحدة كلما ضم أصبعيه، وتصمت برهة، بين الكلمة والتي تليها، ريثما يباعد بينهما. واستمرت هذه الاتفاقية سنوات عدة، كلما اجتمع جدي بحفيدته في الشام صيفاً ثابر على العلاج فيتحسن أداؤها ويقل اندفاعها في الحديث، حتى إذا سافر إلى مكة من جديد في نهاية الصيف عادت إلى ما كانت عليه إلا قليلاً. ولم يزل كذلك سنة بعد أخرى دون سأم ودون ملل، وبلا غضب أو احتجاج، فضلاً عن العقاب، فكنا نرى يد جدي مقبوضة مبسوطة كلما تحدثت تلك الحفيدة، حتى حسن كلامها وانتهت عن الإلقاء السريع.

وهكذا تكون التربية: توجيهات وتنبيهات، وأوامر ونواهي... **ثم يأتي الأهم وهو متابعة كل هذا والتأكيد عليه،** حتى نضمن انغراس

المفاهيم الصحيحة في عقول أولادنا، والتزامهم بها في سلوكهم. وإلا، فإن المغريات كثيرة، ورفاق السوء أكثر. والإنسان من طبيعته النسيان والإهمال والتأجيل والتسويف، لذا كان من واجب المربين التذكير المستمر، والمراقبة الدائمة، والانتباه إلى الأخطاء. وبهذا الأسلوب، وبالصبر والمضي في متابعة العيب إلى آخر الطريق، نضمن علاج العيب وصلاح العلة واستقامة الحال.

* * *

وبعد

إني لأشعر اليوم بأسى شديد وأنا أخرجِ من هذه اللمسات طاويةً صفحةً من صفحات ذكرياتي، مودِّعةً ماضّي راجعةً إلى حاضري.فقد عشت مع كتابة هذه اللمسات أشهراً حافلةً بالعواطف غنيةً بالذكريات ممتلئةً بالمشاعر، أيقظتْ في نفسي الحنين إلى تلك الأيام حتى تصورتها لم تنقضِ وحسبت أني ما أزال طفلةً أتلقى التوجيه وأحظى بالعناية والرعاية وأَقضي أيامي في اللعب والتسلية... وها قد عدت إلى واقعي لأجد نفسي أماً ذات واجبات، وراعيةً صاحبة مسؤوليات، ومربيةً عليها أن تربي أبناءها كما رباها أهلها، وأن توجه أطفالها كأحسن ما يمكن للتوجيه أن يكون. فلا وقت للاسترسال مع العواطف، ولا فائدة من الحياة مع الذكريات، ولا نفع إلا في الاجتهاد والعمل الجاد.

* * *

لقد كانت هذه اللمسات زاداً وتذكرة وعبرة لي –قبل غيري– لآخذ بها وأسير على نهجها وأتبع خطاها، فأطبق أساليب جدي التي طبقها أو أستوحي منها طرقاً مماثلة، أو أبتكر فنوناً جديدة في التوجيه والرعاية. لقد فتح لي جدي آفاقاً جديدة فصرت أهتم بكتب التربية

وعلم النفس وأراقب سلوكيات الأطفال محاولةً اكتشاف الخطأ والسعي وراء العلاج، وكلي أمل أن أخرّج من بيتي أفراداً صالحين يفيدون المجتمع ويسعون إلى الخير ويدعون إليه.

* * *

لقد أردت أن يعم الخير وتتم الفائدة فرأيت أن أكتب هذه اللمسات حتى لا تبقى وقفاً على فئة قليلة من الناس حبيسةَ عقولِ وصدورِ أفرادٍ معدودين. ولكني أحب أن ألفت الانتباه إلى أنني أهملت -من تربيةً جدي- الأمور العامة التي يشترك فيها معظم الوالدين والتوجيهات التي يقدمها عادةً - الآباء للأبناء، وصرفت جهدي في تلمس تلك الملاحظات الصغيرة، واللقطات العابرة، التي بقيت عالقة في نفسي ومطبوعة في مخيلتي لإبداع جدي في عرضها وأسلوبه الفريد في معالجتها والتعامل معها. إنها مواقف بسيطة تقع كل يوم في كل بيت مما يجعلنا لا نلقي لها بالاً ولا نعتبرها ذات شأن ولا نستفيد منها. لكن جدي نجح في اصطياد هذه المواقف العابرة والحوادث الصغيرة المتفرقة ليصنع منها منهجاً تربوياً متميزاً أفاد به المئات على مّر السنين.

* * *

ولا أزعم -بعد ذلك- أن بنات الشيخ وأحفاده وحفيداته جميعاً قد وعوا كل هذه الدروس التربوية فطبقوها وعملوا بها، لكن أكثرهم -حسب علمي وظني- قد طبق أكثرها وعمل به، فكانت النتيجة نجاحاً عظيماً في كل مرة طُبّقت فيها هذه الأفكار بشكل صحيح. وإني

لأرجو أن يصيب من النجاح مثَل ذلك من يطبقها من القراء والقارئات. ولقد قدم جدي الكثير وما طلب منا أجراً ولا شكراً إلا الدعاء فإن استفاد أحدٌ خيراً من قراءة ما نُشر من هذه اللمسات فليدعُ لصاحبها (ولكاتبتها) بظهر الغيب، فعسى أن يكون في هذا الدعاء خير عوض وخير جزاء.

* * *

مع تحيات

"عابدة المؤيد العظم" حفيدة الشيخ علي الطنطاوي